

نهال السعداوي

طبعة الثانية
نسخة معالجة
وصفحات وردية

سقوط الامان

رواية



www.ibtesama.com
متديان - محلّة الإبتسامة

السابق

صدر للمؤلفة عن دار الساقى

- الحب في زمن النفط

باللغة الانكليزية :

- MEMOIRS OF A WOMAN DOCTOR
- WOMAN AGAINST HER SEX
- TWO WOMEN IN ONE

لوحة الغلاف: للفنان حسين ماضي

نَهَالُ السُّعْدَادِي

سُقُوطُ الْمَعْلُومٍ

رواية



الساقية

٧٢	الخوف الجماعي
٧٧	حب الى الابد
٧٩	الكاتب الكبير
٨٦	الإمام متنكراً
٩٠	الفيلسوف
٩٧	الحب القديم
١٠٢	إحياء التراث
١٠٨	بنت الله مع الإمام
١١٢	الإفاقه بعد النشوية
١١٤	الكاتب الكبير
١٢٠	دليل البراءة
١٢٤	القاضي
١٣٠	الشكوى
١٣٤	القوى العظمى
١٣٨	انتظار الأم
١٤٢	لقاء الزوجة الأخيرة والابنة غير الشرعية
١٤٧	الحب المحرم
١٥٠	العشيقه
١٥٢	جواهر
١٥٤	الأم والإبنة
١٥٧	المحاكمة

الإهداء

إلى

شهربانو شيراز الإيرانية

وفاطمة تاج السر السودانية

وكوليت عيتاني اللبنانية

واعتدال محمود المصرية

وإلى جميع البنات والأولاد

في الطفولة وأول الشباب وآخره،

أهدى هذه الرواية

ن. س

تقديم

وأنا طفلة كنت أرى وجه الله في أحلامي كوجه أمي شديد العدل وكوجه أبي شديد الرحمة، لكن زميلتي فاطمة أحمد في المدرسة كانت ترى وجه الله في أحلامها كوجه أبيها شديد القسوة وكوجه عمها شديد الظلم.

واكتشفت وأنا طفلة أن وجه الله يتراهى لزميلاتي الأطفال كوجه الأب أساساً وكوجه الأم أحياناً. فالمشكلة أن الله لا يُرى بعين الأطفال ولا الكبار وما من وسيلة لرؤيته إلا في النوم وبالوجوه التي نراها لأقرب الناس لنا.

وقد حاولت أن أكتب هذه الرواية وأنا تلميذة بالمدرسة لكنني لم أعرف كيف أكتبها. الفكرة في رأسي والأحاسيس والشخصيات.. لكن اللغة لا تساعدني. وعاشت معي هذه الرواية تطاردني وزاد إلحاحها علىَّ في السنين العشر الأخيرة ترمقني عيون أشخاصها في اليقظة وفي النوم وحين أسافر خارج الوطن أو داخله. وحين التقى بشهربانو شيراز الإيرانية وحكت لي عن اغتصاب ابنتها الطفلة في السجن. وحين التقى بفاطمة تاج السر السودانية ورأيت ابنها الغلام وزملاءه في جمعية مقطوعي الأيدي بعد تطبيق الشريعة. وبعد أن عشت ثلاثة شهور في السجن في

عمر مع اعتدال محمود وغيرها من البنات. كانت هذه الرواية طارديّة. ولدّما رأيت وجه أحد الحكام يطلّ من الصورة أو رأسه يطلّ من تحت العمامة المقدسة أو القبعة العسكرية أو عيونه ترمقني في الحلم وأنا نائمة. وكلّما سافرت إلى لبنان ودّوت في أذني قنابل حزب الله تردّ عليها من الناحية الأخرى قنابل حزب الشيطان. وحين سافرت إلى مكة وقرأت الإعلانات فوق الجدران أهلاً بضيوف الرحمن، ومن وراء الجدار أرى الرجل والبنت كالغلام وثالثهما الشيطان. وفي قريتي كفر طحّلة حين كنت أرى وجوه بنات عماتي الفلاحات، وفي القنطر حين رأيت وجوه القاتلات المؤبدات، وفي مشرحة كلية الطب ومستشفيات وزارة الصحة، وفي الأردن والسلط وشريط القناة حيث جبهة القتال. وفي وجوه الأطفال يشربون اللبن ويموتون بالخوف من الإشعاع النووي أو يخافون الضوء كأنه الإشعاع. وفي وجوه الأطفال البنات المختفية وراء حجاب أسود أو في احتفالات الأعياد ومهرجانات الانتخابات والاستفتاءات أو في جلسات استحضار الأرواح وطرد الجن وظهور العذراء ورش أثواب النساء المحجبات بصورة الصليب، وألسنة النيران تطلّ من قباب الكنائس ومنارات الجوامع. وظلت الرواية معي وأشخاصها طارديّة، وكلّما جلست لأمسكها وأكتبها تفلت من بين أصابعِي. وتتنزلق كالزئبق. وخاصة شخصية الإمام فهي شخصية زئبيّة اتبعت معي أسلوب الكرا والفر والإقبال والإدبار. إذا اقتربت منها تبتعد وإذا ابتعدت عنها تقترب. وبشخصية المعارض الشرعي أيضاً راوغت كثيراً إلى حدّ أنني فكرت في حذفها والاستغناء عنها، لكن يد الإمام كانت تمتد وتجذبها إلى جواره يمسكها لا يريد حذفها وإنما افتقدت الرواية الديموقراطية.

كانت شخصيات البنات والنساء أكثر ثباتاً واستقراراً لكن اسم بنت الله أثار في القلق ليالي طويلة. وحاولت أن أغير اسمها فهو اسم ينتهك

المحرمات في حد ذاته. فكيف تجربؤ فتاة أن تحمل اسمًا محرباً (إلى جانب حملها جنيناً غير شرعي) وقد يباح في المسيحية أن نسمع اسم ابن الله وهو المسيح. لكن أن نسمع اسم بنت الله فهذا غير وارد تماماً. لكن بنت الله سألتنى في الرواية ماذا لو كنت مريم العذراء وولدت بنتاً وليس ذكراً، ألا تكون ابنتي هي بنت الله ويسمونها المسيحة وتصبح واحدة من الأنبياء؟

ووُجِدَت صعوبة في تغيير اسم بنت الله، لأن الناس كانت تناديها بهذا الاسم منذ ولادتها حتى موتها رجماً بالحجارة. وانتهى بي الأمر إلى ترك الرواية ونبذها تماماً من حياتي، فكيف تفرض على الشخصيات نفسها وأسماءها؟ وأغرب شيء أني حين نبذتها وتركتها بدأت تأتي إلى وسلم لي قيادها، تعطيني نفسها طوعية وحين جلست إلى الورق وجذتها وكأنما هي تكتب نفسها بنفسها. ولم أحارُ التدخل في حياة الشخصيات الخاصة أو العامة إلا لأمنع بعض المحرمات اللغوية أو انتهاك بعض القيم الإنسانية وخاصة من جانب شخصية الإمام ذاته. ولم يكن في مقدوري أن أترك له السلطة المطلقة في الرواية كما في الدنيا، وقلت لنفسي في روائي على الأقل يكون لي بعض الحرية وبعض السلطة.

القاهرة/فبراير ١٩٨٧

بداية البحث

ليلة العيد الكبير. بعد المطاردة الطويلة وقبل أن يطلع الفجر أصابني أحدهم من الخلف. كنت أجري في الظلمة أبحث عن أمي وليس معي إلا كلبي. أصابوني بالطعنة في ظهري. استدرت وأعطيتهم وجهي فإذا بهم يتلاشون. لا يستطيعون النظر إلى ضوء الشمس. ينامون النهار وفي الليل ينهضون. لا يعرفون شرف المبارزة أو الحرب. وفي الظهر يضربون.

قبل أن أسقط وأنسى الحروف تساءلت. لماذا تتركون الجاني وتقتلون الضحية ولا زلت في أول الشباب وأمي ماتت عذراء. قالوا أمك ماتت مرجومة بالحجارة وأنت بنت الزنا. قلت قبل أن أنسى الحروف وأفقد الوعي لم أكن بنت الزنا وكانوا ينادونني في بيت الأطفال «بنت الله» ومهما فقدت الذاكرة لا أنسى وجه أمي. تركتني منذ ولدتنى لتحارب الأعداء. ماتت شهيدة الوطن. قالوا لم تعرف أمك الولاء للوطن والله والإمام وماتت كافرة مأواها النار. قلت قبل أن يخلو الدم من عقلي وتضيع الذاكرة لم تكن أمي خائنة وهرب منها أبي قبل أن أولد. قالوا ومن هو أبوك؟ قلت إنه الإمام. قالوا أخرسي قطع لسانك.

قبل الموت حكموا عليها بقطع اللسان. كان الإمام يحكم بشرعية

الله . رجم الزانية وقطع يد السارق وقطع لسان كل من يردد إشاعة الموت بالإشعاع وإلقاء الخمور في النهر .

ليلة العيد بعيداً عن عيون الإمام يهبطون إلى النهر ويشربون إلى حد فقدان الوعي . ثم ينهضون وقد عاد إليهم الوعي يندمون . يطلبون المغفرة . يعفو عنهم الإمام ليلة العيد الكبير . ثُفتح أبواب السجون والمعتقلات . يخرج منها الموتى وشهداء الحرب والإشعاع والمرجومات والمقطوعي الأيدي والأرجل من خلاف . ويأتي دورها لتخرج إلى الحرية لكن عيون الإمام تلمحها . تجري هاربة في الظلمة ومن خلفها كلبها . تكاد تفلت قبل طلوع الفجر لكن الطعنة تصيبها في ظهرها . قبل أن تسقط تتساءل لماذا ترکون الجاني وتذبحون الضحية؟ ! وتتلاشى الأصوات ويصبح عقلها بلون الظلام وذاكرتها سوداء أو بيضاء بلا حرف إلا اسم أمها .

لا يعرفون القراءة

الظلمة داكنة. لا شمس ولا قمر. لا يعرفون هل هو الليل أم نهار مظلم في غابة كثيفة الشجر. ضوء خافت ينفذ يشبه الكشاف في يد الخفير أو رئيس الأمن. في الضوء يرون الجسم يركض جرياً. يدركون من حركة الجري فوق ساقين اثنتين أنها إنسان وليس من ذوات الأربع، يرون أنها امرأة وليس رجلاً. نهдан بارزان منتصبان فوق الصدر. شابة في أول الشباب. عظامها صغيرة وبشرتها ناعمة كبشرة الأطفال. سمراء بلون طمي النهر، طويلة الوجه مسحوبة العينين كالإلهات القديمة. عيناها واسعتان والبني أسود كعين الليل. قدماها صغيرتان حافيتان لا تكfan عن الجري. يدها اليمنى تمسك شيئاً طويلاً يشبه الغصن. عارية كما ولدتها أمها. عورتها مختفية في الظلمة تحت ليل أسود أو ورقة داكنة الخضراء. جسمها يلمع في الضوء وهي تجري كالسمكة تشق الكون نصفين. وميض برق يظهر ثم يعود الليل كما كان. تختفي هي وكلبها وتکاد تفلت.

لكن الظلمة تنشق عن فرقة من عيون الإمام يتقدمهم رئيس الأمن. طابور من الرجال أجسامهم ضخمة يغطيها الشعر. يمسك كل منهم في يده اليمنى قطعة حجر أو آلة قتل مديبة. يحررون في إطار البنت. هي أقدر منهم على الجري. هي أدرى منهم بأسرار المكان. المكان مكانها حيث ولدت وحيث ماتت.

كادت تفلت لولا أنها توقفت تماماً صدرها بهواء المكان.

لم تطل دهشتي حين توقفت لأول مرة بعد الهزيمة في الحرب الأخيرة. منذ ماتت أمي. في منعطف طلعة الهمبة بين البحر والنهر. في الطريق من البيت إلى الجبهة. فلت مني شهقة حين صعدت الهمبة. سقط الغصن من يدي وارتع قلبي وهتفت بأختي التي كنت أعلم أنها قادمة بعدي. عشرون عاماً منذ ولدت وأنا أحلم بهذه الطلعة. رائحة الهواء لم تغب عن ذاكرني. أتذكر كل منعطف في الأرض. وهذه النخلات الثلاث. وشجرة الجميز. والهمبة فوق الوادي الأخضر، وهواء البحر. إنني استنشق رائحة أمي. هذه الأرض وطني.

كادت تفلت لولا أنها توقفت تماماً صدرها برائحة حياتها. أصابتها الطلقة في ظهرها. نفذت كالسهم من الظهر إلى القلب. سقطت إلى الأرض تنزف إلى جوارها كلبها. فزعت العصافير وملائ صيحاتها الكون. ارتفع صياح الديكة والغربان والحمير صعد نحوها في السماء. شاركت الكلاب النباح. كان الفجر على وشك الطلع. نهض رجال يرتدون جلاليب بيضاء ولحي طويلة سوداء. ركبوا مكبرات الصوت فوق المآذن والقباب تتسلى منها أسلاك الكهرباء. وانطلق الصوت كالرعد يحث الناس على الصلاة ومباعدة الإمام. ثم انقطع الصوت فجأة بانقطاع التيار الكهربائي. عاد الهدوء والصمت وظل الناس نياماً. انتهت الجريمة في الظلام لم يشهدها أحد. لكن الكون شهدتها والأشجار والهمبة بين البحر والنهر. ظلت محفوظة في قلب صخرة في بطن الأرض. العام وراء العام. ظلت تعيش على شكل صخرة وإلى جوارها كلبها. تحجر الجسم الحي. (هذه حقيقة علمية. وفي التاريخ عاش أهل الكهف مع كلبهم في بطن الأرض ثلاثة أيام).

لكنها بنت وحيدة وليس معها رفيق إلا كلبها (وأخوات قادمات من

بعد) والكون يشبه الكون الذي نعيش فيه اليوم. السماء والأرض والشجر والبيوت والنهر والبحر. قلت أهـو البحر الأبيض المتوسط. أهـو نهر النيل؟ قالوا الأسماء هنا تختلف. والزمن مختلف. لكن المكان واحد. والشمس واحدة. وسنابل القمح واحدة. والجاموسـة سوداء البشرة لها أربع أرجل أراها من بعيد وهي تهبط إلى النهر. تسبح في الماء وظهرها يلمع تحت أشعة الشمس. تغمض عينيها في راحة واستمتاع. تخرج من النهر تتمشى في استرخاء. تقف عند حقل البرسيم وتأكل. تتضع على مهل وتهز ذيلها. ترهف أذنـها لصـرير الساقـية وترمق المرأة المربوطة بالحبل وعينـها معصوبـتان. تدور مع الساقـية ومن خلفـها رجل في يـده عـصـا من الخـيزـران. يـلسعـها على رـدـفيـها كلـما تـوقـفت. أـفلـتـتـ منـيـ الشـهـقـةـ كالـدـهـشـةـ. المرأة تدور في الساقـيةـ والـجامـسـةـ تـتنـزـهـ؟ قالـواـ القـانـونـ هـنـاـ العـرـضـ والـطـلـبـ. ثـمـ الجـامـسـةـ فيـ السـوقـ أـغـلـىـ منـ ثـمـ المـرـأـةـ. يـمـلـكـ الرـجـلـ أـرـبـعـ نـسـاءـ وـلـيـسـ لـهـ إـلـاـ جـامـسـةـ وـاحـدـةـ. وـالـحـقـولـ الـخـضـرـاءـ مـمـتدـةـ كـالـشـرـيـطـ الطـوـيلـ بـحـذـاءـ النـهـرـ. طـابـورـ مـنـ الجـامـسـونـ يـسـبـحـ تـحـتـ الشـمـسـ. مـنـ وـرـاءـ الشـرـيـطـ الـأـخـضـرـ الصـحـراءـ ثـمـ جـبـلـ الرـمـالـ الـأـصـفـرـ. إـذـاـ ذـهـبـتـ نـاحـيـةـ الـهـضـبـةـ هـنـاكـ قـطـاعـ الـطـرـقـ. الضـبـعـ وـالـنـسـرـ كـلـاهـمـاـ لـاـ يـأـكـلـ إـلـاـ الـمـيـتـ. لـاـ يـأـكـلـ الـلـحـمـ الـحـيـ إـلـاـ اـبـنـ آـدـمـ. النـمـورـ تـأـكـلـ الغـلـانـ وـتـأـنـفـ لـحـمـ الـإـنـسـانـ. لـحـمـ الغـلـانـ نـادـرـ. وـلـحـمـ بـنـيـ آـدـمـ كـثـيرـ بـلـ عـدـدـ. التـمـاسـيـخـ خـائـنـةـ وـالـثـعـابـينـ مـلـتوـيـةـ نـاعـمـةـ مـنـ السـطـحـ وـسـمـهـاـ قـاتـلـ. لـاـ يـعـرـفـ الـلـوـفـاءـ هـنـاـ إـلـاـ الـكـلـابـ. وـالـظـلـمـةـ لـاـ تـزالـ دـاـكـنـةـ. حـشـراتـ عـلـىـ شـكـلـ بـعـوضـ أـوـ جـرـادـ أـوـ فـئـرانـ. زـواـحفـ وـكـائـنـاتـ تـجـريـ فوقـ أـرـجـلـ. أـيـنـ النـاسـ؟ لـاـ أـرـىـ أـحـدـاـ. الـبـنـتـ الـمـقـتـولـةـ اـخـتـفـواـ أـيـضاـ. قـلتـ أـلـاـ يـوـجـدـ هـنـاـ بـشـرـ؟ قالـواـ الـبـشـرـ هـنـاـ بـالـمـلـاـيـنـ. كـالـهـوـامـ فـيـ الـجـوـ. لـاـ تـرـيـنـهـمـ بـالـعـيـنـ الـمـجـرـدةـ. يـعـيـشـونـ فـيـ كـهـوفـ فـيـ بـطـنـ الـأـرـضـ. بـيـوـتـ عـلـىـ شـكـلـ قـبـورـ. يـخـافـونـ الـضـوءـ. يـتـصـورـونـ أـنـهـ النـارـ. يـخـافـونـ شـعـاعـ الشـمـسـ. يـظـنـونـ أـنـهـ الإـشـاعـ النـوـويـ.

شر قادم من وراء البحار. ترسله القوى العظمى في لbin الأطفال. أو غضب من عند الله. ولماذا يغضب عليهم الله؟ لا أحد يعرف. لا يعرفون جريمتهم. لا يعرفون كلمة الله. فهي كلمة مكتوبة. وهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة. ولا الكلمات. مجرد هممات أو صيحات أو هتاف أو صراغ. قلت ألا يمكن الحديث إليهم؟ قالوا نعم إذا عرفت لغتهم وإذا ارتديت زي رجل أو أخفيت عورتك وراء حجاب. قلت بدهشة أي عورة وأنا أرتدي ملابسي كاملة. وأشاروا بأصابعهم المدببة إلى وجهي. أصاببني ذعر وارتجم لساني. قلت من قال لكم هذا؟ قالوا إنها كلمة الله. قلت كلمة الله مكتوبة وأنتم لا تعرفون القراءة فكيف عرفتم كلمة الله؟ سكتوا طويلاً. نظر بعضهم للبعض. رفعوا عيونهم نحو السماء وأشاروا إلى الصورة المعلقة فوق قوس النصر. قلت من هو؟ شهقوا بدهشة ألا تعرفيه؟ صورته معلقة في كل مكان. في الشوارع. على الجدران. في الدكاكين. فوق أقواس النصر. اسمه «الإمام» وهو في كل مكان. قلت: من يكون في كل مكان لا يكون في أي مكان. قالوا بایعنیه مدى الحياة سيدنا الإمام رأى الله وعرف كلمته. قلت وأین رأى الإمام الله؟ قالوا زاره الله في المنام.

نداء الأم

في طفولتي وأنا نائمة كان الله يزورني وله صوت حنون كصوت أمي. وحين سمعت دوي الطلقات ورأيت صورة الإمام تسقط بدأت أجري. لم أكن أخاف الموت. فالموت أمره سهل إذا حدث في لحظة خاطفة. فصل الرأس عن العنق بضربة سيف. اخترق الرصاصية القلب بطلقة واحدة. أما الموت الطبيعي فهو الرعب الحقيقي. يربطونني بالحبار داخل حفرة في الأرض. يقذفوني بالحجارة حجراً وراء حجر. يوماً وراء يوم. خمسون يوماً أو مائة أو ألف. وإن مات جسمي فلن تستسلم روحي. يرهقهم الرجم بالأحجار قبل أن أموت. تنزف أيديهم الدم قبل أن تفرغ شرائي. تختبئ روحني ذرات التراب والرمل. يتحول جسدي إلى صخرة يرتد عنها الحجر. ومن بعيد أرى الصخرة منتصبة فوق الهضبة بين البحر والنهار. واقفة في الظلمة تنتظرني. منذ ولدتنى وهي واقفة تنتظرني. عشرون عاماً وهي لا تزال منتصبة وظهرها مرفوع. صوتها كالهمس. كحفيف الهواء والشجر. كالنداء الخافت ينبعث من بطن الأرض. بنت الله، تعالى. كانوا يسمونني بنت الله. وكلبي اسمه مرزوق. رافقني منذ ولدتنى أمي. ظل معى حتى النهاية. لا يعرف القراءة ولا الكتابة. لم يقرأ كلمة الله. لكنه الوحيد الذي يعرف الحقيقة. يعرف أننى بريئة من دم الإمام. وكيف أقتله وهو أبي المجهول ولو لاه

(بالإضافة إلى أمي المجهولة) ما كان وجودي. لم يعرف أحد أني ابنته إلا أمي ومرزوق. رأها وهي راكعة فوق الأرض تنسج بكاء مكتوم. وراءه وهو يخرج هارباً في الظلمة. عرف وجهه وحفظ ملامحه. أصبح كلما رأى صورته معلقة في الجو ينبع بصوت عال. لم يفهم الناس نباهه. فالناس لا تعرف لغة الكلاب. لكن الكلاب تفهم لغة البشر. ولها مثل البشر ذاكرة تحفظ التاريخ. وظل مرزوق يحفظ شكله وهو يخرج هارباً. جرى خلفه وأمسكه من الخلف. مزق سرواله من فوق الإلية اليسرى واستقرت قطعة من القماش الدمور بين نابيه. لونها كاكي كملابس عساكر الجيش ورائحتها عرق وعطر رخيص. ترك القطعة وراءه وانطلق يجري خافقاً من الكلب. قدماه وهو يجري لهما وقع مسموع. في كعب حذائه حدوة من الحديد. لم يكف عن الجري ووجهه نحو السماء. أمله في الله كبير. أنصرني يا رب على أعدائي وحقق لي آمالي. عيناه الجاحظتان ملوءتان بالأعمال العريضة. شفتاه سميكتان فيهما نهم لامتلاك الكون. عرش في السماء وعرش في الأرض. قصر يطل على البحر في الصيف. وقصر الشتاء في الجنوب. وقصر في الجنة تجري من تحته الأنهر وغلمان وحور. طرف لسانه جاف وظمؤه شديد. فمه مفتوح يلهث ويجري بلا توقف. حرمانه قديم منذ الطفولة لا يهدأ. ورغبة الامتلاك كالمرض الزمن لا تشبع. والأمل في الله بغير حدود. علامه الإيمان فوق جبهته دائرة محفورة مرسومة. في يده اليمنى مسبحة حباتها صفراء. فوق رده الأيمن الحراب الطويل داخله السيف. يده اليسرى فوق الردف الأيسر تخفي الثقب في السروال.

اختفى في الظلمة يتمتم بآيات الحمد لله.. أنفاسه تفوح بالخمر وعرق امرأة فقيرة. ارتفع نباح مرزوق في الليل. لم يسمعه أحد. كانت صواريخ العيد تدوي في الآذان. والإمام يخطب في مكبرات الصوت.

يبدأ باسم الله وينتهي بالصلوة على النبي. يتفرقون بعد الخطبة ويختفون في البيوت. في رؤوسهم نشوة النصر وفي حلوقهم مراة الهزيمة. يظهر في الشوارع رجال يحملون السكاكين. كل منهم ينادي بصوت عال. جزار. ويعلم الصمت والوجوم. ثم يرتفع من كل بيت صرخة الضحية. ودخان كثيف ورائحة شوأة اللحم. بعد الأكل يرتدون الملابس الجديدة. وأحذية في كعبها حديد كالخدوة. يدبون فوق الأرض حامدين الله على النعم. في اليد اليسرى مسبحة وفي اليد اليمنى حجر. حان موعد رجم الشيطان.

ربطوها بالحبال. صنعوا من حولها دائرة. تسابقوا في الرماية وإصابة الهدف. نقطة الوسط فوق علامة الشيطان. الفائز الأول له وسام الشرف وقصر صغير بجوار قصر الإمام وحوريات.

الأرض من تحتها باردة. رائحة تراب في أنفها. مربوطة في الأرض. صدرها مكسوف. الركبتان والذراعان مفتوحتان. في أذنيها صوت الطبول. صواريخ العيد. ضحكات الأطفال والبالونات الملونة. تفتش في وجوه الأطفال عن وجه ابنتها. تلمع الوجه الصغير الشاحب. تلوح لها بيدها وتنادي بصوت كالخفيف: بنت الله، تعالى.

منذ ولدتنـي أسمع نداءـها مع حركةـ الهواء وأوراقـ الشجر. صوتها في ذاكرـي نقـش فوقـ الحجرـ. واقـفةـ في الظلـمةـ بلاـ حركـةـ. صـخرـةـ علىـ شـكـلـ تمـثالـ. متـشـحةـ بـغـلـالـةـ سـودـاءـ تـخـفيـ مـعـالـمـ الجـسـمـ منـ حـولـهاـ دـائـرـةـ ضـوءـ مجـهـولةـ المـصـدرـ. يـداـهاـ الكـبـيرـتـانـ فـوـقـ صـدـرـهاـ. تـخـيـانـ شـيـئـاـ عـنـ الكـوـنـ. أـصـابـعـهاـ مـنـقـبـضـةـ عـلـىـ مـوـضـعـ القـلـبـ. مـلـامـحـ الـوـجـهـ ثـابـتـةـ فـيـ اـرـتخـاءـ. وـهـبـتـ حـيـاتـهـ دـوـنـ مـقـابـلـ. أـلـمـ الـاـكـتـشـافـ فـيـ الـعـيـنـيـنـ. الصـدـمةـ رـاحـتـ وـلـمـ يـبـقـ إـلـاـ الحـزـنـ. كـالـضـوءـ أـوـ الرـؤـيـةـ الـجـديـدةـ لـلـكـوـنـ. جـسـمـهاـ نـحـيلـ بـرـيءـ مـنـ اللـحـمـ. كـالـرـوـحـ أـوـ الـخـيـالـ. بـلـ حـاجـةـ إـلـىـ حـرـكـةـ أـوـ لـغـةـ.

ملموعة باليد داخل كتلة من الهواء. رأسها مرفوع. فقدت كل شيء ولم تخسر نفسها. على شفتيها ابتسامة. عرفت السر وهتكت حجب السماء. عذابها محفور فوق عظام الوجه. عيناهما واسعتان مملوءتان بالبريق. ترقبان انطفاء الضوء الأخير.

وأغلق حارس الإمام آخر أبواب القصر. تعمت باية الكرسي يطرد الشياطين وأرواح الجن. دب السكون في الليل. نام الإمام ونامت عيونه. الشياطين نامت، والملائكة نامت، والآلهة نامت، وأوراق الشجر نامت. وهي لا تزال واقفة تتلتف حولها. لا أحد يراها. اثنى جسمها وكاد رأسها يلامس الأرض. انتزعت من صدرها الشيء المخبأ. ساوت الأرض بكفها الكبيرة الحانية مثل كف الله. أبعدت قطع الطوب والخضي. فرشت الأرض بترباب ناعم كصدر الأم. وأرقدتني.

كنت نائمة. وجهي شاحب يطل من فتحة ثوب أبيض. عيناي مغمضتان. صدري يعلو ويحيط في أنفاس الأطفال العميقه. يدي تطل من فتحة الكم مفتوحة الكف. ابتهال في النوم كالنداء الصامت. خلعت شالها الصوفي الأسود وحوطتنى. لامست يدي إصبعها فأمسكته بأصابعي الخمس لا أتركه. تركت إصبعها في يدي طويلاً بطول الليل، بطول النفس العميق في صدر الأم. ثم بدأت تسحبه شيئاً فشيئاً. والدم ينسحب من قلبي قطرة قطرة. ارتج جسدي لحظة الانفصال. وصحوت من النوم. رأيتها واقفة تطل عليّ. رأسها في السماء وعيناهما نجمان يلمعان في الليل. ثم استدارت. ظهرها مرفوع. خطوطها واسعة. لا سريعة ولا بطيئة. تحرك ذراعيها في الهواء كأنما تملك الهواء. ابتعدت شيئاً فشيئاً ثم اختفت دون أن ينقص حجمها.

أطفال الله

حين دوّت الطلقات رأيته يسقط. وفي لحظة السقوط تغير وجهه. أصبح له وجه آخر. ليس هو الوجه الذي عرفته. وجه غريب لم أره من قبل. ليس وجه رجل ولا أب ولا إمام. ليس وجه إنسان ولا حيوان. كالوجه المخيف في كوابيس الطفولة وحكايات الجدة العجوز أرضعني مع اللbin حكايات العفاريت والجحان. جدتي الحقيقة لم أرها مثل كل الأطفال في ذلك البيت.أطفال كثيرون بلا أم ولا أب ولا جدة. يسمونهم أطفال الله. وأنا اسمي بنت الله. لم أكن رأيت الله وجهها لوجه. تصورت أن الله هو أبي. وأمي هي زوجة الله. وفي النوم أرى أمري واقفة تنتظر الله. الليل مظلم والناس نامت وهي واقفة. وأنا راقدة ورأسها عال في السماء. عينها مليئتان بالضوء وصوتها كالهمس: بنت الله، تعالى. أنهض من سريري وأسير حافية نحو الصوت. يأتي من بعيد من وراء الباب. أفتح الباب وأنظر. لا أحد. أسير في الممر الطويل حتى نهايته. لا أحد. باب آخر مغلق لا ينفتح. النافذة مفتوحة تطل على الفناء. أصعد إلى النافذة بقفزة واحدة. أسير على حافة الجدار. أمد ذراعي أمامي وجسمي يحفظ توازنه. حركتي خفيفة كالريشة. قدماي لا تلامسان الأرض. كالروح بغير جسد أسير على الحافة دون أن أقع. ثم أقفز في الفناء فوق يدي وقدمي كالقطة. أتوقف في الظلمة أتسمع الصوت. من

وراء الباب يأتيني الهمس. باب من الخشب طلاوه أخضر بلون الزرع مفتوح عن شق صغير ينفذ منه ضوء.

- من هناك في الظلام؟

- أنا.

- مين أنت؟

- بنت الله.

- تعالى يا بنت الله.

أدخل إلى الغرفة الصغيرة نصف المعتمة. زوجة الحراس واقفة وراء الباب. يداها ممدودتان نحو يديه بلون الأرض. جلبابها أسود واسع. رأسها مربوط بمنديل أبيض. عيناهما واسعتان تلمعان. وجهها ناعم كصدر الأم. أنفاسها تعلو وتهبط في نشيج خافت. ثدياتها مملوءان باللبن. الحلمة السوداء متتصبة نافرة. تضغطها بين إصبعين تعتصر الألم. قطرات اللبن تساقط قطرة قطرة. فراش طفلتها إلى جوارها خال. زوجها نائم شخيره مسموع. وجهه مليء بالتجاعيد والشعر، متকور تحت بطانية منحولة الوبر. رأسه يطل من تحتها منحول الشعر. جفناه مغلقان انفتحا فجأة ورأني بين ذراعيها. حلق في وجهي بعينين حمراوين وصاح: ليست بنتي. بنت مين هي؟ قالت إنها بنت الله. ارتفع كفه في الهواء وسقط على وجهها: يا زانية يا بنت الزانية.



فتحت عيني في الظلمة. أسرة كثيرة تطل منها رؤوس الأطفال. إلى جواري سرير طفلة من عمري اسمها نعمة الله. أقول لها أختي. شعرها أسود ناعم يطل من تحت الغطاء. عيناهما مفتوحتان. أنفاسها

متقلعة كالنشيج. تهمس بصوت خافت: بنت الله، تعالى. أنهض من سريري وأنام إلى جوارها. تحوطني بذراعيها وجسمها يرتعد: أنا خائفة. ماذا تخافين؟ أخاف الله. لماذا؟ لا أعرف. ألا تخافين الله؟ أنا بنت الله فهل أخاف من أبي؟ تلف ذراعيها حولي. وتحت أذني قلبها يدق. صدرها ناعم كصدر الأم. ننام متعانقتين حتى الفجر. قبل شروق الشمس توقظني. بنت الله عودي إلى سريرك.

كانت الأوامر مشددة. النوم له موعد محدد وجرس. لا أحد يغادر السرير بعد النوم. إذا ضبطت اثنستان في سرير واحد فالعقاب شديد. غرفة التأديب في الفناء الخلفي. سمعت عنها قصصاً مخيفة. أمام بابها يقف رجل طويل ضخم. رأسه يلمع تحت الشمس بغير شعر. وجهه عريض يغطيه الشعر. عيناه ضيقتان غائرتان، في يده اليمنى عصا طويلة، وفي اليد اليسرى مسبحة صفراء.

في الليل تحوطني أختي بذراعيها. تنسج بصوت مكتوم وتحكي قصة أمها. زارها الله في الحلم وحملت منه مثل مريم العذراء. ارتدت ثوباً واسعاً لتخفي ارتفاع البطن. ولدتها في الليل بعد أن نام الناس. لكن عيون الإمام رأتها. ربّطوها بالحبال ورجوها حجراً حجراً. قلت لها وأنا أعانقها: إذا كان الله هو السبب فلماذا يقتلونها؟ ولا تعرف نعمة الله الجواب. يغلبني النوم دون أن أعرف السر. في الحلم يتراءى لي الله على شكل رجل. واقف في الظلمة ويده اليمنى خلف ظهره. رأسه يلمع تحت الضوء بغير شعر ووجهه يغطيه الشعر. يرتعد جسمي تحت الغطاء وعيناي مغلقتان. يحرك يده اليمنى خلف ظهره. يرفعها أمامي ويفتح أصابعه. ليس في يده العصا. يهمس بصوت ناعم بنت الله، تعالى. يقترب مني حتى يلامسني بيده. أحسّ كفه الكبير الحاني، بشرته ناعمة كصدر الأم. أضع رأسي على صدره وأغمض عيني، يده تربت على

وجهي ثم تهبط لتر بت على صدر ي ويطني . رجفة غامضة تهزني
وقشعريرة . يهمس بصوت ناعم : لا تخافي أنا الله وسوف تلدين المسيح .

أصحو من النوم والدنيا ظلام . جسمي مبلل بالعرق وله رائحة الله . الرجفة لا تزال والقشعريرة . يدي تزحف فوق بطني أتحسس الحمل . شيء في أحشائي يتحرك كالجذن . قلبه يدق تحت يدي مع دقات قلبي . الظلمة كثيفة والفجر لم يطلع . ضوء خافت يتسلل من شقوق النافذة . السقف عال رمادي . يتلألئ منه سلك النور ، فوق السلك ذباب أسود ناعم . رؤوس الأطفال سوداء صغيرة تطل من تحت الأغطية . أختي نائمة وشعرها يغطي وجهها . أغمضت عيني لأنام . رائحة الله في أنفي . صوته كالهمس في أذني . يده خلف ظهره . لكنني لم أعد أخاف . فهو لا يحمل العصا ويده ناعمة كصدر أمي . ما زال يقترب مني بخطوات بطيئة . وجهه يظهر تحت الضوء . ليس الوجه الذي رأيته . عيناه حمراوان فيهما شرر وأصابع يده غليظة حديدية تلتف حول عنقي . أحارب الجري وجسمي مربوط في الأرض . أفتح فمي لأنادي على أمي . صوتي لا يطلع ، وفي أذني الدوي .

ما هذا الصوت؟ صواريخ العيد؟ زغاريد أم صراغ؟

وجه البابا القديم

سمعت الطلقات بأذني ورأيت الإمام يسقط. وجهه كان معلقاً في السماء يعكس شعاع الشمس. دوى الصوت كالرعد وتحول الضوء إلى إشعاع نووي. أصبح وجهه ناحية الأرض بلون التراب. فوق المنصة كان وجهه مضيئاً كوجه الله. انقلب عند السقوط وأصبح داكن اللون كوجه الشيطان. لم أكن رأيت الشيطان من قبل وجهاً لوجه. لكنني رأيته في الحلم وحكايات الجدة العجوز. تجتمع حولها في الليل قبل جرس النوم. تحكي لنا عن الشياطين وأرواح الجنان. كنت لا أزال في بيت الأطفال. لا أعرف وجه أمي ولا أبي. وجه الله أراه في النوم مزدوج الوجه ناعماً كصدر الأم من ناحية ومن ناحية الأخرى مخيفاً يغطيه الشعر. يتجسد لي دائماً على شكل رجل. أول رجل رأيته في حياتي. كان الأطفال يسمونه «البابا». يظهر فجأة. لا أراه داخلاً أو خارجاً من الباب الخارجي. يقف وسط الفناء فاتحاً ساقيه كأنما انشقت عنه الأرض أو سقط من السماء. عضلات وجهه لا تتحرك. رأسه بغير شعر يلمع تحت الضوء. وجهه يغطيه الشعر ولحيته طويلة. يرتدي قميصاً أبيض مفتوحاً عند الصدر. يطل من فتحة العنق شعر كثيف أسود. عظام صدره كبيرة والثدي عريض مشدود العضلات بغير لحم. فوق كل ثدي نقطة سوداء كالحلمة الضامرة يشف سوادها من تحت القميص الخفيف.

حول خصره حزام عريض من الجلد يضغط بطنه في عظام الظهر. ردافن ضامران داخل سروال من الجلد. عظام ساقيه بارزة مقوسة تحت الركبة. فخذاه متقلصان كفخذي النمر يتقيان أسفل بطنه في ورم صغير بحجم الليمونة.

لم تكن يده اليمنى تخلو من العصا. واليد اليسرى تقبض على ذراع طفل أو طفلة. يجرها خلفه إلى غرفة التأديب. يغلق عليها الباب ثم يعود إلى الفناء. يجلس على الكرسي الخيزران وينادي على الأطفال. نتجمع من حوله فوق الدكك الخشبية. وتبدأ حصة الدين. يقرأ بصوت بطيء غليظ. يد تمسك العصا واليد الثانية تمسك كتاب الله. «قل أَعُوذ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَاثَاتِ فِي الْعَقْدِ». أغمض عيني وأنام. أرى النفاثات في الحلم على شكل نسور سوداء تحلق في الجو. أصحو على صوته كهدير الطائرة النفاية يسأل: ما عقاب السرقة؟ ويهتف الأطفال في نفس واحد: قطع الذراع. وما عقاب الزنا؟ ويرن صوتنا في الفناء: الرجم بالحجارة حتى الموت. ويدب الصمت حتى يسمع كل منا أنفاس الآخر. نعمة الله جالسة إلى جواري. ترمقني بعينين تتسعان لذعر العالم. ما هو الزنا؟ وأغمض عيني كاتمة أنفاسي هاربة في النوم. ثم أصحو على صوته يقرأ مرة أخرى: «قل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ إِلَّا». وتقرب مني نعمة الله حتى يلتصلق رأسها برأسني وتهمس في أذني: ألم يلد الله المسيح؟

صوتها كان خافتًا كزفير يخرج من الصدر. لكن عينه الغائرة اتجهت نحونا وارتفع صوته في الجو: مَنْ الَّتِي تَكَلَّمَتْ؟ وَلَمْ أَعُدْ أَسْمَعْ شَيْئًا إِلَّا صوت العصا تلسع الهواء. ورأيت خروف العيد مربوطاً من ساقه الأمامية بحبيل في الأرض. يشد ساقه محاولاً الخلاص ويمامي بصوت

عال. عيون الأطفال تتوجه خلسة ناحية الخروف. آذانهم تتبع الصوت البطيء الغليظ يقرأ القصة. في النوم زار الله الأب وأمره أن يذبح ابنه. أمسك الأب عنق ابنه ووضع فوقه السكين.

وانكمش الأطفال متکورين بعضهم داخل البعض فوق الدكة الخشبية... امتدت العصا طويلة لامعة كالسكين واستقرت فوق عنق فضل الله. جالس إلى جواري متکور حول نفسه كالجنين. يده في يدي باردة مثلجة وأظافره زرقاء. ركبته مرفوعتان فوق الدكة عاريتان. يشد عليهما طرف جلباه الدمور. وجهه خال من الدم. الدكة الخشبية من تحته تهتز. صوت الصرير كالأسنان تصطرك بالبرد. أمسكت يده في يدي وتساءلت بصوت غير مسموع: ماذا فعل ابنه ولماذا يذبحه أبوه؟ لكنه سمعني. كان يسمعنا قبل أن ننطلق ويرانا دون أن نراه. وصاح بصوته العالي: الأب لا يسأل الله لماذا والابن لا يسأل الأب لماذا. طاعة الله واجبة وطاعة الأب أو الزوج من طاعة الله.

رفع العصا من فوق عنق فضل الله. وأشار بطرفها المدبب إلى الخروف المربوط. وقال: هذا هو ضحية العيد الكبير نذبحه ونأكل لحمه، لأن سيدنا إبراهيم أطاع الله، ولأن اسماعيل أطاع أبيه. وانتهت حصة الدين. واختفى من الفناء كما ظهر. ولم ينهض فضل الله من مكانه فوق الدكة. ساقاه مشلولتان. رأسه بين ركبتيه.

دق جرس النوم. نهضت من فوق الدكة ونهض معي فضل الله. جلباه من الخلف ملتصق بجسمه ومكانه فوق الخشب مبلل. مشحته بكفي قبل أن يراه أحد. فاحت رائحة البول في أنفي. جفت يدي في جلبائي واختبأت في دورة المياه. من النافذة رأيت من بعيد غرفة التأديب ومن خلفها تطل قبة الكنيسة ومنارة الجامع. شجرة كبيرة تحجبها عن الضوء وتلقي عليها غلالة سوداء تخفي معالم الجدران وتضفي عليها مسحة

غامضة شبه إلهية كأنها في العالم الآخر. بابها خشبي أصفر اللون، مقبضه معدني أبيض تعلوه بقع سوداء كالدم القديم.

عيناي ثابتان فوق المقبض. لم يتحرك ولم تخرج نعمة الله. أغمضت عيني ونممت ثم صحوت. لا زال الباب مغلقاً. إلى جواري فضل الله. أخرج الرغيف من تحت جلبابه. نفذت رائحة الخبز إلى أنفي. لم آكل منذ حصة الدين. جلسنا فوق النافذة متعانقين. جلبابي يفوح برائحة بوله. وفي جلبابه رائحة عرقى. نعمة الله لم تخرج من غرفة التأديب. همست بصوت غير مسموع: سأقتله حين أكبر.

كأنما كانت تسمعنا أذناه. انشقت عنه الأرض وظهر أمامنا طويلاً عريضاً كالمارد. عضلات وجهه متقلصة. الشعر يطل من فتحة القميص منتسباً. عضلات الصدر مشدودة وحلمة الثدي نافرة. ساقاه مفتوحتان كفكى المقص. عيناه ثابتتان علينا ونحن راقدان فوق النافذة. أنفه يتشمم برائحة والفتحتان الكبيرتان تتسعان داخلهما الشعر الأسود.

وجاء دوري وأسلمت له نفسي كأنه الله. يقودني حيث شاء إلى قدمي المحتموم. ثم صحوت من النوم. وجدت نفسي في السرير من تحتي البلولة. وخيط دافئ يسري ناعماً فوق ساقي كالعرق. تحسسته بأصبعي من تحت الغطاء ثم قربت يدي إلى عيني تحت الضوء. كان أصبعي مبللاً بالدم الأحمر.

مرة واحدة في التاريخ

أصابتني الطلاقة من الخلف وأنا أجري ومن خلفي مرزوق. قبل أن أنسى الحروف وأفقد التاريخ تذكرت. كنت أرتدي ملابسي كاملة. ورأيتهم يشيرون بأصابعهم إلى وجهي. عورتك هي هذا، وارتاج جسدي رغم الموت. قلت من قال لكم هذا؟ قالوا إنها كلمة الله. قلت لكنها كلمة مكتوبة وأنتم لا تعرفون القراءة. سكتوا طويلاً. نظر بعضهم إلى بعض. رفعوا عيونهم نحو السماء. أشاروا إلى الصورة المعلقة فوق أقواس النصر. قالوا سيدنا الإمام رأى الله وعرف كلمته. قلت وأين رأى الإمام الله؟ قالوا زاره الله في المنام. وتذكرت قبل أن تضيع الذاكرة. قلت وأنا أيضاً زارني الله في المنام. قالوا الله لا يزور امرأة ولا يظهر لها في الرؤيا. قلت زار الله مريم العذراء وهي امرأة. قالوا حدث ذلك مرة واحدة في التاريخ والله منزه عن التكرار. قلت زار الله النبي محمدًا وظهر في الرؤية لابراهيم فلماذا يكرر الزيارة للإمام؟ سكتوا طويلاً. نظر بعضهم للبعض. رفعوا عيونهم نحو الصورة المعلقة في السماء، وقالوا إنه رأى الله وهم لم يروا الله.

رئيس الأمن

الظلمة داكنة كأنما انطفأت الشمس. وهي تجري هاربة ومن خلفها كلبها يجري يحرك بأقدامه الأربع تراب الأرض. يلهب التراب عيون الإمام وهم يجرون خلفها ومن خلفها كلامهم تنبع. وينخرج رئيسهم من جيبيه متديلاً حريرياً من أجود الأنواع ويمسح عينيه وزجاج النظارة. منذ منحه الإمام المنصب واللقب وهو يرتدي النظارة السوداء يرى الناس والناس لا تراه يرقب حركة عيونهم دون أن يروا حركة عينيه. فهو رئيس الأمن واجبه حماية أمن الإمام وأعضاء حزب الله. وفي الصف الأول يقف عن اليمين لا يفصله عن مقعد الإمام إلا جسد الإمام ذاته. وعن اليسار يرى الكاتب الكبير واقفاً إلى جوار المعارض الشرعي يطل القلم من جيبيه العلوي، عينه اليمنى على العرش واليسرى تتجه إلى شرفة الحرير. وفي الصف الثاني صفوف الوزراء تتلاصق أكتافهم وأقدامهم وأيديهم فوق قلوبهم مربوطة من خلاف، والأجانب واقفون صامتون بوجوه لامعة وأحذية براقة ونساؤهم إلى جوارهم في شرفة الحرير، وكبارات نساء الدولة تتوسطهن الزوجة الشرعية ترتدي وجه الملك وفوق صدرها وسام الشرف.

يرمقها بطرف عين ويراها وهي ترمي الكاتب الكبير بعيون مشتعلة وهو يبادلها الإشعاع بإشعاع. والإمام عيناه شاخصتان نحو الله.

والمعارض الشرعي عينه اليمنى على العرش وعينه اليسرى على رئيس الأمن. يتبدلان الابتسام وفي الليل يشربان نخب الصداقة والولاء. صديقان لدوdan، واحد في حزب الله والثاني في حزب الشيطان، وكلاهما شرعني أنجبيه الإرادة العليا. كالأخوين غير الشقيقين أمهما واحدة والأب رجلان عدوان تجمعهما الكراهة وحب امرأة واحدة.

كنت واقفاً في الصف الأول والهتاف يدوي مع مدافع العيد والإمام شاخص نحو السماء وأنا شاخص من تحت النظارة السوداء أرقب عيون الناس. التقط الحركة قبل أن تقع وألحظ اليد قبل أن ترتفع والإصبع قبل أن يدوس على الزناد. أعرف وجوههم واحداً وأحداً وأرى رؤوسهم وهي تندس بين الرؤوس. ملامحهم محفوظة في درج مكتبي داخل الملفات رجالاً ونساءً. ولحتها وهي واقفة خلف الصفوف تخفي رأسها وراء الرأس أمامها. وعرفتها على الفور. وجهها نحيل شاحب كوجه أمها زانية بنت زانية لا تتحرك إلا تحت الأرض مع الأحزاب السرية والمعارضة غير الشرعية. فقيرة معدومة لا تملك إلا جسمها. تتبعه بشمن طعامها ذهبت إليها مرة وأنا شاب. فتاة صغيرة كالطفلة. قبل أن أبدأ الجولة الأولى قالت أخرج قروشك. قلت ألا تشقي في؟ قالت أنت من النوع الذي يأكل من عرق النساء. وانعقد لساني كيف عرفت الطفلة حقيقتي وانكشف عنها الحجاب. وأخرجت من جيبي القروش ووضعتها في الدرج. صعدت فوقها المرة وراء المرة حتى أعيها الجهد فنامت. دسست يدي في الدرج ساحت إيرادها وخرجت قبل أن تصحو. جمعت القروش العام وراء العام وبنيت بيتاً من الطوب الأحمر ثلاثة أدوار. تزوجت بنت الوزير ودخلت حزب الله. لم أر زوجتي قبل الزواج. محجبة طاهرة لا تنكشف على الرجال. تزوجتها على عهدة الوزير وسنة الله والرسول. اشتريتها بمهر عال ودخلت عليها بعد حفل كبير بحضور

الإمام. ظلت ملأة العرس بيضاء من غير سوء. قلت لنفسي سبقني إليها غيري وعوضي على الله. شرف الوزير فوق شرفي والله غفور رحيم ولست فوق الإله. ضربتها حتى اعترفت بالإثم ثم غفرت لها كما يغفر الله. أصبحت معبودها وهي عابدتي تعشق موضع رأسها عند قدمي. أملكها ولا تملكوني وأرفضها فتعشقني ولا أعشق إلا من ترضي. كنت أسمع أمي تقول لأبي: أنت ظلي فوق الأرض إذا هربت منك تبعتنى تحري خلفي. وسمعت الإمام يقول: لا يشغل بي إلا من يعارض أمري بغير أمر مني. وألمح عينيه من تحت نظارتي السوداء تتجهان نحوها وهي واقفة خلف الصفوف. عيناها مليئتان بالرفض وعيناه يملأهما العشق. وقلت لنفسي لن يقتلك سواها وفي التاريخ لم يسقط أعظم الملوك إلا بسبب امرأة ساقطة.

الزوجة الشرعية

الهتاف يدوّي «الله معك» يرج أذنيها يتلئ منها قرط الماس يهتز مع دوي الصوت ومن حوله الإشعاع ملايين الأضواء. وعنقها الأبيض كالرخام يرتج ومن حوله عقد اللؤلؤ الحر خمسة أدوار. وفوق صدرها الوسام على شكل «بروش» يعكس الضوء كقرص الشمس. وأصابعها تحوطها الخواتم والفصوص كالنجوم تملأ الكون بالضياء. وهي واقفة في شرفة الحرير ومن حولها كبيرات نساء الدولة يرتدين وجهها مشدودة وثياباً حريرية مرتخية وعوراتهن مختفية تحت حجاب مستورد من أجود الأنواع. وهي واقفة في الشرفة عنقها مشرب نحو زوجها الإمام وعنقه مشرب نحو الله. قلبها تحت ضلوعها يدق وفوق القلب تحت النهد صليب محفور في الجلد فوقه المسيح مدقوق بالمسامير. رفعت يدها ورسمت فوق صدرها الثالوث. الأب والإبن والروح القدس. إحفظيه من أعدائه يا ستنا العذراء. أستغفر الله. إحفظه يا رب ويا رسول الله فأنا تركت المسيح من أجل الحب. تركت اسمي واسم أبي، أهلي وبلدي وديني وألقيت بهم جميماً في البحر. كنت مرهقة أغسل الصحون وأنفس في القطارات تحت الأرض هواء تنفسه قبل الملايين. أبتسم في الوجوه والوجوه لا تبتسم لي. أذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد وأدعو المسيح لينقذني من الفقر. عشرون عاماً ولم ينقذني الأب أو الإبن أو الروح

القدس. ثم جاء الإمام وأنقذني. رأيته جالساً فوق العرش ووَقَعَتْ^{١٠}
أول نظرة في الحب. حملني بين ذراعيه وارتفع رأسِي في السماء عرفت
الجنة فوق الأرض. آمنت بالله والرسول. حدائق وقصور وخدم وحشم
وأنهار من العسل والخمر. أرفع رأسِي والرؤوس من حولي تنخفض.
يبيسمون في وجهي ولا أبتسِم. أمشي أمام الوزراء ومن حولي الأضواء.
افتتح المستشفيات وملاجئ الأطفال. اسمي في التاريخ محفور بحروف من
النور. زوجة الإمام ليس لها شريكة فوق العرش ولا تعلو عليها امرأة
في جمال أو علم أو جاه.

الله معك. لا زال الهاتف يدوي في أذنيها وهي شاخصة ناحيته
وهو شاخص الناحية الأخرى. مدافع النصر تضرب ومع كل ضربة قلبها
يضرب. حاملات الصواريخ تحلق فوق رأسه العاري إلا من طاقية
الإمام. وصدره مكشوف بغير قميص الوقاية. واقف فوق المنصة ولا
شيء يحميه إلا الله ورسوله. احفظيه من الشر يا ستنا مريم. تلعمت
واستغفرت. لسانها يذكر الله والرسول وقلبها يذكر المسيح. احفظه يا
رب من أعدائه. من الحاسدين والحسدات من شر النفات في العقد.
وأولهن زوجته القديمة. مخفية وراء الصفوف تخبيء في جلبابها ورقة
السحر مطوية فوق صدرها على شكل حجاب. تدعوه الله أن يسخطه على
شكل قرد. إحفظه يا رب من كيد النساء إن كيدهن عظيم، وابنته غير
الشرعية تضرر له الموت منذ ولدت. تخفي رأسها بين الرؤوس وفي يدها
اليمنى شيء طويل كآلة القتل.

ضربات قلبها تدوي في أذنيها مع دوي الهاتف. ما هذا الصوت؟
طلقات رصاص؟ عينيها الزرقاءان بلون البحر ترى وجهه يسقط فجأة من
السماء إلى الأرض والوجوه من حوله تخفي وذرات تراب تملأ الجو
بالغبار. وتفتح عينيها لتصحو من النوم لكن عينيها الزرقاءين مفتوحةتان.

وهي ليست نائمة وليس من تحتها كرسي العرش. اختفى هو الآخر. أو انقلب رأسه إلى أسفل وأرجله الأربع إلى أعلى. رسمت الصليب على صدرها. ماذا حدث يا أمنا العذراء مريم؟ وأغمضت عينيها حين رأت وجه أمها كبيراً مدوراً كقرص الشمس: الأم والابنة والروح القدس. أستغفرك يا رب: الأب والابن والروح القدس.

الله مع الإمام

سمعت الطلقات بأذني وكنت رافعاً عيني نحو عرش السماء. هي لحظة واحدة غفلت فيها عن عرش الأرض. انتهز غفلتي وأطلق النار. لم أر وجهه ولم أعرف من هو على وجه التحديد. واحد من أعضاء حزب الشيطان. أعرفهم وجهاً وجهاً وأعرف رئيسهم. كان مهملاً منسياً فآخرجه من الظلمة إلى النور. منحته الوجود من العدم وأصدرت الأمر فأصبح رئيس المعارضة الشرعية. قلت له تعارض كل القرارات إلا قراراتي فأنا الحكم الوحيد فوق الأرض والرئيس الأعلى لحزب الله. وأنت لك قصر في ميدان الحرية ومعونة شهرية وجريدة يومية ومقدد في مجلس الشورى والبرلمان.

رأيته يبتسم ووجهه أشرق. كان زميلاً في المدرسة. يغمض عينيه ويحلم بصورته منشورة في الصفحة الأولى. حلم يتكرر كل يوم. وأنا مثله يراودني الحلم ذاته. والصفحة الأولى لا تنشر إلا صور رؤساء الدول أو رؤساء الأحزاب أو صور السفاحين والسفاحات والحاملات السفاح. وفي المدرسة كان يجلس إلى جواري وسرواله من الصوف الغالي. وسروالى مثقوب من الخلف أخفيه بيدي. أبي كان فلاحاً فقيراً يراني في الحلم خفيراً في بلاط الإمام. أبوه كان غنياً سافر للتعلم وراء البحار، عرف اللغات الأجنبية وارتدى ملابس الأفندية. تزوج امرأة تؤمن بال المسيح ولا

تعرف العربية. شقراء بيضاء الساق يشف بياضها من تحت اللحم كحوريات الجنة. أرمقها بعين محروم لم يعرف في حياته المرأة.

عرفت من النساء كثيرات لكن الفقر يحوطني كجلدي والخوف من الجوع يلazı مني ومهما أكلت لا أشبع ومهما أمنت المستقبل لا آمن. وكل يوم أرى صوري منشورة في الصحف. معلقة في كل مكان تحت الأضواء. وأغمض عيني ليراودني الحلم القديم. أن أجلس على عرش الأرض والسماء. منذ الطفولة وأنا نائم أرى الله. له وجه أبي مليء بالتجاعيد. خطوط الزمن والجدري القديم، فوق النّئي الأسود في عينيه اليمنى نقطة بيضاء بقايا الرمد الصديدي. يرتدي جلباب الفلاحين وطاقية رأس منحولة الصوف. يناديني بصوت أبي الجمهورى يا إمام، وأقول نعم يا ربى. سأعطيك الرزق بغير حساب في الدنيا والآخرة بشرط واحد. وأقول ما هو يا ربى؟ يمد يده نحوى قابضاً على شيء. أصابعه سمراء مشقةة كأصابع أبي. يفتح أصابعه وأرى المسبحة حباتها صفراء. ثلاث وثلاثون حبة. إذا حرقت الحبة الواحدة ثلاث مرات يكون عددها تسعًا وتسعين. مع كل حبة اذكر اسمًا من أسمائي. هذا هو أمري. ومن لا يطيعك عليك بهذا. ما هذا؟ وشد من جراب طويل في جلبابه سيفاً لاماً وكاد بوزه الحاد يدخل صدرى. تراجعت إلى الوراء وفي حركة التراجع فتحت عيني وصحوت من النوم. رأت أمي وجهي شاحبًا وفي قلبي رعدة. قالت ما لك يا ابني وجهك ليس هو وجهك. قلت لها رأيت الله قالت الله خير فلماذا ترتعد؟ قلت كان معه سيف وكاد السيف ينحرق صدرى. بصقت في فتحة جلبابها الأسود وقالت إنه الشيطان وليس الله. انھض واغسل وصلٌ ليغفر الله لك.

أمى كانت تصلي الفجر قبل أن تذهب إلى الحقل وتعود بعد المغرب لتصلي العشاء. أبي لم أره يركع ركعة واحدة. وفي رمضان يأكل ويشرب

ويدخلن الشيشة ويوزع لياليه بين أربع زوجات بغير عدل. يعطي الزوجة الأخيرة ثلاثة ليال وأمي ليلة واحدة. وأسمعه يقول يغفر الله الذنوب جميعاً إلا أن شرك به. إنه واحد في السماء هو الله وحاكم واحد فوق الأرض هو الإمام. قبل أن يموت زار قبر الرسول في مكة ثم عاد يرتدي عباءة بدل الجلباب. وسمعته يقول زيارة قبر النبي تمسح الذنوب ولا يبقى منها شيء. ومات أبي طاهراً بغير ذنب. وقبل أن تموت أمي قلت لها لماذا لا تزورين قبر الرسول لتلتحقي بأبي في الجنة. قالت باع أبوك المحصول ولم يعطني شيئاً. ليس معي ثمن التذكرة إلى مكة. ولم تمسح أمي ذنبها. مسحت دموعها بكفها وقالت إذا فتح الله عليك يا ابني أبواب الرزق فاشترِ لي تذكرة إلى قبر النبي. قلت هذا وعد يا أمي لن أنساه. ونسيت الوعد ونسيت وجه أمي. مضت السنة وراء السنة، عشرون سنة دون أن أراها. كانت تسكن في بيت بعيد في أقصى الجنوب. وأنا أرفع رأسي ناحية السماء. لا أرى إلا الله وأعضاء حزب الله. نسيت أن هناك حزباً آخر هو حزب الشيطان. ولو لا أمري ما كان له وجود ولا شرعية. قلت لنفسي إذا لم يكن هناك شيطان بين الناس فلن يكون هناك خوف. وإذا لم يكن هناك خوف فلن يبقى حاكم ولا إمام فوق العرش، وهو يلعب في مجلس الشورى دور المعارضة. يقول لا أمام الناس وفي أذني يقول نعم. ورث عن أبيه الأرض والمال ولم يبق أمامه إلا الشهرة ودخول التاريخ. زار الرسول في قبره وأطلق على نفسه اسم الحاج. قلبه خال من الإيمان وزوجته لا تعرف التوحيد. ترسم الصليب على صدرها وترکع للثالوث. الأب والابن والروح القدس. بيضاء كالشهد مشوقة كالغضن تتكلم سبع لغات. يتفاخر بها أمام الناس وتجلس إلى جواره في الحفلات. زوجتي كنت أخفيفها تحت الحجاب وفي الشارع تمشي ورائي. لا تكتب ولا تقرأ كتاب الله. ناقصة العقل مملوءة بالشحم. رأسها صغير وردفها ثقيل. مخلوقة من ضلع أعوج بلا حسب

ولا نسب. تزوجتها قبل أن يفتح الله لي أبواب الرزق. جمعنا الفقر كالرباط المقدس. وبعد اعتلاء العرش لم تعد الزوجة القديمة تناسب حياتي الجديدة. وفي مجلس الشورى قالوا الإمام له الحق في بيت جديد وزوجة جديدة وعباءة جديدة من أجود الأنواع. وجاؤوا لي بالصوف المستورد الغالي. وزوجة مستوردة من أجود الأنواع. بيضاء كالشهد وعيون بلون البحر تتكلم لغات الأرض. قالوا هذا حق الإمام فهو أفضل الرجال وزوجته أفضل النساء لا تعلو عليها امرأة في جمال أو علم أو مال. تصاحبني في رحلاتي وتنوب عنِّي في الافتتاحات. ترتدي الزي الرسمي وتهتف مع الجماهير في الحفلات وفي أعياد النصر تتلقى فوق صدرها الوسام. وفي الهزائم تلبس زي الممرضات تقدم لمشوهي الحرب «البونبون» وتغني مع أرامل الشهداء والشهيدات، ومن فوق أقواس النصر ترفف صورة الإمام، وعيناي مرفوعتان نحو السماء. رأيت الله وانكشف عنِّي الحجاب. أتمتم بآيات الحمد وبين الشفتين ابتسامة تتسع لحب الشيطان. وتدوي في أذني الهتافات فأحرّك يدي اليمنى في الهواء. وتحنّني شفتي السفلی فوق ذقني بتواضع الأنبياء. وأنا واقف فوق المنصة مشوق القوم مرتدية وجه الإمام. فوق جبهتي علامة الإيمان وفوق صدري وسام النصر. عن يميني رئيس الأمن وعن يسارِي كاتبِي الكبير ثم معارضي الشرعي. ومن خلفنا صفوف الوزراء ومندوبي القوى العظمى والكبار.

الله معك. دوى الهتاف من حناجر الرجال والنساء وتلاميذ المدارس بزي الكشافة والبنات بملابس الممرضات والجنود بالسرافيل الكاكي والعمال بالبدل الزرقاء وال فلاحون بالجلاليب والطواقي وفرق الفنون الشعبية بالراقصات والصاجات. يرتفع الهتاف والأناشيد ودقائق الطبول وصواريخ العيد تملأ الدنيا بآلاف الألوان. تنطلق في السماء حمائم

السلام تتلوها الطائرات حاملات القنابل من نوع انتهى مفعوله هنا، مااته
عام. وفي أذنيه يسري الهاتف «الله معك» وعيناه نحو الله تسألان: إذا
كنت معي يا رب فلماذا الهزيمة ولماذا تحجب عنى سر القنبلة النووية؟
لماذا تعطي السر لأعدائنا الكفار وتحرم عبادك المؤمنين المخلصين؟ أستغفر لك
فأنت لا تسأل عن الحجج والعلل. هذه إرادتك وليس لي أن أعارضك.
فالمعارضة ضررها أكثر من نفعها. و كنت أظن أن هذا الشيطان الواقف
إلى جواري سيلعب دور المعارض الشرعي في حدود إرادتي العليا. ويوضع
على صدري وسام الحرية والديمقراطية. لكنه افترى وتكبر وملأ
الصحف بصورته فوق صوري، يبتسم في وجهي كالملاك ومن الخلف
يصوّب لي الضربات، يقف إلى جوار القوى العظمى في الحفلات
ويصوّب إلى شرفة الحرير النظارات.

زوجتي الجديدة درست علم السياسة وراء البحار. ولها نظرية في
فن الحكم وترويض الرجال. قالت امسك العصا من الوسط ولا تضرب
طول الوقت. أربت على الكتف مرة بحنان الأم، والمرة الثانية اضرب
لوق الرأس. وأنا وأنت نتبادل الأدوار، فإذا ضربت أنت جئت أنا باسمة
كملاك. وإذا تهاونت أنت أو تنازلت أمسكت أنا العصا واللجام. قلت
لها عليك بالمعارضة وأعضاء حزب الشيطان. قالت سأروض الرجال
منهم، فالرجل طفل بريء وإن رفع راية العصيان، والمرأة هي الحياة
والشيطان وإن تلتفعت بالحجاب ودخلت حزب الرحمن. قلت أعدائي
كلهم رجال يضمرون الحقد منذ الطفولة. وبين النساء ليس لي أعداء إلا
الثنان. زوجة قديمة خلعتها عنى مع جلبابي القديم. وابنة غير شرعية
جاءت في نزوة طيش مع الخمر. قالت زوجتك القديمة مكسورة الجناح
وليس منها خطر. لكن ابنتك تصمر لك السوء ولن يشفى غليلها إلا
القتل. قلت لا تقتل البنت أباها وإن اغتصبها كالذئب. وهي تحبني

وتعترف لي بالولاء. قالت أنت تحبها والحب أعمى وأنت واقف تحت الضوء وهي خلف الصفوف في الظلمة تنتهز الفرصة لتصوب الضربة. قلت لن يضربني إلا عضو من حزب الشيطان أو مأجور من الأحزاب السرية أو عدو من خارج البلاد. قالت أعداؤك كثيرون وكلما رفعك الله زاد أعداؤك ولا تخرج إلى الشارع بدون قميص الوقاية. قلت الواقي هو الله. قالت الله وحده لا يكفي إذا انطلق الرصاص. قلت أستغفر الله العظيم يا لك من كافرة لم تنزععي عن صدرك الصليب. ألا تشقين في قدرة الله على حمايتي؟ ألا تؤمنين بالله والنبي محمد؟ قالت منذ ليلة زفافنا أخرجت من قلبي المسيح وأمنت بك وبالله والرسول ولكنني أخاف عليك من أعدائك والوقاية خير من العلاج. قلت لست ذاهباً للقاء الأعداء سألتقي بشعبي الحبيب وجنوبي الأعزاء، قلوبهم تفيض بالحب والولاء وأصواتهم تهتف بحياتي إلى الأبد، ألا تسمعين الهاتف يا امرأة؟

البودي جارد

لم يكن البودي جارد (الحارس الجسدي باللغة العربية) يعرف شيئاً عن أمور الحكم أو الخلافة. كانت مهمته محددة وهي الوقوف بجوار الإمام مرتدياً وجه الإمام المطاط وجسده المشوّق. ولم يكن في قدرة أحد إلا الله ورئيس الأمن أن يكتشف الإمام الحقيقي من الإمام المصنوع. وأذن «البودي جارد» كانت تشرئب مرهفة. فإذا ما سمع طلقة نارية قفز بخطوة واحدة أمام الإمام يستقبل الرصاصية في صدره نيابة عنه. وفي سعادة طاغية يموت فداء الوطن وفي عنقه مفتاح الجنة معلقاً داخل السلسلة يفتح باب الجنة ويدخل مع الأنبياء والشهداء. وتحصل زوجته على لقب أرملة الشهيد ويصرف لها معاش مضاعف ووسام من الدرجة الثالثة.

في كشوف خدم الإمام كان له لقب رسمي: «البودي جارد». ولا يمكن لأي رجل أن ينال هذا المنصب. فهو منصب رفيع خطير أخطر منصب في الدولة. يقتضي الإخلاص للإمام والإيمان به مائة في المائة دون تفكير يؤدي إلى التردد. والتردد ولو للحظة خاطفة قد يؤدي بحياة الإمام. إذا انطلقت الرصاصية وتردد «البودي جارد» في الموت نيابة عن الإمام فهذه كارثة أكبر الكوارث. «عدم التفكير على الإطلاق» كان هو المؤهل الأول للحصول على هذا المنصب. ويختار الإمام بنفسه البودي

جارد. يتقدم المرشحون للوظيفة على شكل طابور. يمرون أمامه وهو جالس على الأرجحية في حديقة القصر. يتم الاختيار بعد اختيار دقيق لخلايا العقل. تُسجل النتائج فوق ورقة بيضاء ناصعة البياض. أي نقطة سوداء فوق البياض تعني أن هناك شبهة وإحدى خلايا المخ تفكّر.

- هل أنت مستعد للموت من أجل الإمام؟

- نعم بكل سرور.

كلهم يقولون نعم ولا أحد يقول لا. لكن الإمام لا يثق في كلام أحد. ولا يمنح ثقته إلا للجهاز - الإلكتروني يقدر وحده على اكتشاف الصدق من الكذب. امتحان صعب لم يكن ينجح فيه إلا رجل واحد في المليون. وبعد اختبار العقل يأتي اختبار الجسم. وهو امتحان لا يقل صعوبة. قدرة الأذن على أن تشرئب وتسمع الطلقة قبل أن تنطلق. قدرة الجسم على القفز واستقبال الموت في خطوة واحدة. القدرة على تقمص جسد الإمام والوقوف أمام الناس كأنه الإمام لا فرق. القدرة على السقوط والموت دون أن يلحظ أحد ودون أن يسمع أحد صوت الطلقة. فهي طلقة خافتة تنطلق عادة من آلة قتل حديثة كاتمة للصوت. والهتاف يكون عالياً يغطي على الصوت إذا كان هناك صوت. الله معك. ويرفع الإمام رأسه نحو السماء غافلاً عن الأرض. وفي هذه اللحظة الخاطفة تنطلق الرصاصية. يتلقاها البوبي جارد بصدر رحب ويسقط بين قدمي الإمام دون أن يلحظ أحد. يختفي جسده على الفور ويحل مكانه جسد آخر. له الملامح ذاتها والوجه ذاته من المطاط. يرتديه فوق وجهه فيصبح هو الإمام ولا يمكن لأحد أن يفرق بينهما حتى زوجته.

في كل مرة يخرج البوبي جارد من باب بيته يعلم أنه لن يعود. ومع ذلك يخرج بكل إرادته ووعيه مستبشراً بالموت وفي عنقه مفتاح الجنة. يتدلّى من سلسلة فضية وله ذنب رفيع أسنانه مشرشة. كيف يفتح

الجنة بهذا المفتاح؟ وهل للجنة باب مثل البيوت؟ ورضاون حارس الجنة هل يتركه يفتح الباب؟ أسئلة كثيرة تخطر له وهو واقف يسمع الهاتف. تطمردها خلايا عقله السؤال وراء السؤال. لا أحد يلحظه وهو يفكر. الجهاز الإلكتروني معطل والتيار الكهربائي مقطوع ورئيس الأمن عينه على الصحف الخلفية. والإمام شاخص إلى أعلى نحو السماء. وهو أيضاً يرفع رأسه بالحركة نفسها. وحين يهز الإمام يده تحية للجماهير يهز يده بالحركة ذاتها. لا يمكن لعين أن تلحظ الفرق. وحين يمشي الإمام فوق الأرض يقلد مشيته. مشية مميزة فيها عرج خفيف. يدوس بقدمه اليمنى على الأرض بقوة أكثر من اليسرى. عظام ساقه اليسرى فيها اعوجاج منذ الطفولة. نقص الكالسيوم في لبِّن الأم. لم تعرف أمه شيئاً عن مرض الكساح. تصورت أنه عين الحسود وحوطت عنقه بدوبارة تتسلل منها خرزة زرقاء وألبسته ملابس البنات.

كان الإمام قادراً على التواجد في مكانين مختلفين في وقت واحد. ولا أحد يعرف السر إلا البودي جارد. يهمس الإمام في أذنه: إذهب نيابة عنِّي إلى هذا الاجتماع أو هذا الحفل أو إلى مجلس الشورى أو صلاة الجمعة أو إلى هذه المهمة خارج البلاد.

يسير أمام الكبار والوزراء ولا أحد يشك أنه ليس الإمام. حتى هو لا يشك في نفسه. وإن ساوره الشك لحظة فإن هتاف الجماهير يعيد إليه الثقة. ويمشي مرتدياً وجه الإمام المطاط رافعاً رأسه. يلتقي بالسفراء والخبراء الأجانب. يقص الشريط مفتاحاً الملائج. وفي اجتماع مجلس الشورى يظل صامتاً كالإمام. ينصت إلى تقارير الوزراء ويهز رأسه علامه الفهم. أو يشرد بعينيه ناحية السماء كأنه يفكِّر. ولا يلحظ أحد أنه لا يفكِّر. وأن عقله يترك جسده في مقعد الإمام ويهرُب إلى الدور الأرضي. يخلع الوجه المطاط ويدلل بطرف الإصبع أنفه المضغوط تحت الأنف

الآخر . ومن الباب الخلفي للقصر يخرج مع الخدم متذمراً بوجهه الحقيقي . يقفز في الأوتوبوس قبل أن يقف ويهبط قبل أن يدفع التذكرة . يسير بين الأزقة يضرب ببوز حذائه قطعة زلط حتى يصل البيت . تحوطه أمه بذراعيها ويشم رائحة الخبيز والروث . أتنسى أمك عشرين سنة؟ هل مرت عشرون سنة يا أمي؟ كنت هنا بالأمس . وتقول أمه من تغطى بالأيام عريان ومن ابتعد عن السلطان سلطان . يجلس على ركبتها تهزه كالمرجحة وتحكي له الأخبار . هذا الشتاء ماتت الكتاكيت بالشوطه . عمتك الله يرحمها ماتت بالكولييرا . خالك سافر إلى الحج ولم يعد . بنت خالتك عضها كلب مسروع ، وأبوك زارني في المنام وقال إنه يتظمني في الجنة . أنسيت يا ابني الوعد وأين هي تذكرة السفر إلى قبر النبي؟

يدفن رأسه في صدرها . أبداً يا أمي لم أنس ولكنها المشاكل . مشاكل يا أمي مشاكل بغير حل . الله سبحانه هو الوحيد القادر على حلها . ديون خارجية يا أمي . وصراع القوى العظمى . وحرب الكواكب وأعضاء حزب الشيطان وأولاد الحرام وبنات الحرام . والألم هنا يا أمي تحت يدك في صدري . تتحسسه كف الأم المشفقة حتى تعثر على الجرح النافذ من الصدر إلى القلب . تسده بتراب الفرن أو مسحوق البن وينام بين ذراعيها حتى يلتئم الجرح وصوتها في أذنه يعني كالنشيج .

صوتها عميق يأتيه من بعيد وهو واقف مرتدياً وجه الإمام قبل السقوط . كصوت في حلم أو حلم داخل الحلم . وكثيراً ما نام وحلم أنه يحلم . ويصحو وهو لا زال في الحلم ثم ينام ويحلم مرة أخرى أنه يحلم . وفي الحلم يعرف أنه يحلم . ويرتدى الوجه المطاط وهو لا زال يحلم . ويهبط سالم القصر كمن يمشي وهو نائم . ويركب سيارة الإمام ويلوح للناس بيده . وفي المجلس يراه الوزراء منصتاً باهتمام وهو لا يسمع . ويهز رأسه علامه الفهم وهو لا يفهم . ويهرش شعر رأسه كأنه يفكر وهو

لا يفكر. فلم يكن التفكير شرط المنصب. وحين دوت المدافع وعم
الظلام تجمد الدم في عروقه. فهو يخاف الظلمة منذ الطفولة. ويخاف
صوت الهاتف ودقائق طبول النصر. في مثل هذه اللحظات تنطلق
الرصاصية دون أن يلحظ أحد. ولا يسقط أحد إلا هو. يموت وحده
ولا يموت معه أحد. يسقط جسده بين قدميه وينتفي في السر. وتنتقل
السلطة بسرعة بانتقال الوجه المطاط من وجهه إلى وجهه. ولا يشعر الناس
أن شيئاً حدث أو تغير. والإمام يظل واقفاً فوق المنصة رافعاً رأسه نحو
السماء. وصواريخ العيد تفرقع والهتاف يدوي «الله معك».

وجه مزدوج

طفولتي من بعيد تبدو سعيدة. يأكل الزمن الألم ولا يترك في الذكرة إلا الفرح. ودموع الحزن تتحول في العينين إلى نافذة للرؤيه. وجه أختي لا زلت أراه. عينها في عيني تلمعان في ظلمة الليل. ذراعها حولي. صدرها ناعم كصدر الأم. وأخي يلazمني كرائحة جسدي أشمه في العرق وأشمه في الزهر فهو جسمي ورائحته هي رائحتي.

في مدرسة الممرضات رأيت نفسي أرتدي ثوباً أبيض وشعرى ملفوف داخل غطاء أبيض. كالملاك أنتقل من سرير إلى سرير. خفيفة الحركة لا تكاد تلامس قدماي الأرض. كالروح بغير جسم طويلة نحيلة كالخيال. صوتي همس وأنفاسي عميقه كالأطفال. ثدياي تحت الثوب الأبيض صغيران نافران. لي سرير أبيض في عنبر كبير. ودرج من الخشب عليه حروف اسمى بنت الله، وإلى جواره اسم اختي نعمة الله. وجهها نحيل أبيض، وعيناها حين ترانى تمتلئان بالضوء.

مدرسة الممرضات كانت بناء ضخماً قدماً أسوداً لونه من القدم. أول مدرسة للبنات لا تدخلها إلا اليتيمات بغير أب أو أم. إلى جوارها المستشفى الحربي يطل على النهر بنوافذه المدهونة وشرفاته الزجاجية. ومن خلف النهر بناء ضخم قديم قدم العبودية. أسوداً لونه وعقره التراب

فاصبح بلون الأرض. نوافذه عالية تسدّها قضبان حديدية كالسجّن. عيون أطفال تطل من خلف النوافذ لامعة كالنجوم في كون أسود. أطفال الله. أو الأطفال غير الشرعيين باللغة الرسمية. ومن خلف بيت الأطفال مساحة من الأرض صفراء مستوية كالصحراء. ثم ترتفع الأرض مل شكل هضبة منخفضة تعلوها أشجار شوكية. يسمونها النباتات الشيطانية. يتصرّرون أنها تنموا وحدها بإرادتها ضد إرادة الله. في بطن الهضبة ينتصب مبني ضخم أسود اللون قديم قدم الشيطان. ترتفع جدرانه السوداء عالية تخرق السحاب كأنما تتحدى السماء. نوافذه عالية تسدّها القضبان كبيت الأطفال. ومن وراء النوافذ تطل رؤوس النساء مربوطة بالمناديل أو محلولة الشعر. والشعر غزير طويـل مجعد أو مبلد من التوم يسري فيه القمل بأقدام دقيقة. يلمع الشعر تحت الشمس بأضواء كاللون الطيف. «بيت السعادة» باللغة الدارجة «وبيت المؤمسات» في ملف ليس الأمـن.

ومن نافذتها في مدرسة المرضـات لم تكن ترى النهر ولا الهضبة وراء النهر. كان المستشفى الحربي ضخماً كبيراً يحجب عنها الكون. إلا فطعة من السماء تطل من فوق الجدار وشعاع رفيع من الشمس يصل إليها قبل الغروب.

ولم يكن مسموماً أن تطل من النافذـة. شرفات المستشفى الحربي نوـاجـه نوافذ المـرضـات. يطل أطباء الجيش على الـبنـاتـ. يـيـتسـموـنـ، يـيـهـزوـنـ رؤوسـهمـ أو يـصـفـرونـ. يـرتـدونـ الـبـدـلـ العـسـكـرـيـةـ. فوقـ صـدـورـهـمـ وأكتافـهـمـ النـجـومـ والنـيـاشـينـ وفـوقـ رـؤـوسـهـمـ قـبـعـاتـ حـرـبـيـةـ. وفيـ اللـيـلـ بـعـدـ جـرـسـ النـثـومـ تـطلـ أـخـتـيـ بـرـأـسـهـاـ منـ السـرـيرـ وـتـحـكـيـ لـيـ قـصـةـ حـبـ. تـحـتـ النـورـ اـخـافـتـ تـخـرـجـ الصـورـةـ مـنـ صـدـرـهـاـ. صـورـةـ رـجـلـ. فـوقـ رـأـسـهـ قـبـعـةـ حـسـكـرـيـةـ. فـوقـ صـدـرـهـ وـسـامـ مـسـتـدـيرـ كـالـقـرـصـ. حـافـةـ القـبـعـةـ تـلـقـيـ عـلـىـ

نصف وجهه الأعلى ظلاً رمادياً. يخفي معلم العينين والأنف. تحت الأنف شارب أسود. مقصوص بعناية مربع الشكل يشبه شنب هتلر. تُقْبِل الصورة وتخبيئها في صدرها فوق القلب. وتحكي لي القصة من جديد. كان مصاباً برصاصة في صدره. ورقد في السرير وهي واقفة. كان يسميها ملاكي الحنون وأصابعها فوق الجرح ناعمة. تسهر إلى جواره طول الليل. فإذا فتح عينيه رآها واقفة أو جالسة. وإن نامت ودق الجرس جاءت في غمضة عين وإذا لم يدق الجرس تدخل على أطراف أصابعها. تغطيه إذا تعرى وتسقيه إذا عطش وتقرأ له قبل أن ينام. ولم يكن يقرأ إلا كتاب الله وأخبار الحرب. ولم يحدثها عن شيء إلا القتال والموت، قتل ثلاثة رجال وهرب الرابع بعد أن أصابه برصاصة في صدره. منحه الإمام الوسام في عيد النصر. تدرب على القتل منذ الطفولة. كان يقتل العصافير وهي واقفة فوق الشجر. يثبت البن دقية فوق كتفه وفي منتصف رأس العصفور يصوب. ثم يدوس بإصبعه على الزناد. وتسقط العصفور بطلقة واحدة.

وأحوطها بذراعي كالأم. جسمها نحيل كعصفور. في أعماقي حنين لصدر الأم. أدن رأسي بين نهديها وأنشج: لا أريد أن يقتلك الرصاص. وتوهج عينها بالضوء: سيقتلني الحب وليس الرصاص.

لم أكن أعرف شيئاً عن الحب. قلبي يخفق بالحنين لذراعين يضمان جسمي دون ألم. وعيناي تنظران إليها وتلمعان بالنور. في درجي رسائل بخط يدي أكتبها ولا أرسلها لأحد. في أعماقي خوف عميق من الحب. وخوف أشد من الله. في بيت الأطفال كنت أصلّي ويتجسد الله في أحلامي على شكل رجل. يمر بيده الحانية على صدري ويرتفع بطني بال المسيح، في الصباح وأنا أصلّي أسمع صوت الله غاضباً. يلعنني ويهددني بالعقاب. أستغفره وأسجد حتى يلامس الأرض رأسي. أكثر الركوع

والسجود والتوبه لكن صوته يظل غاضباً. خمس مرات في اليوم أصلٍ.
وفي كل صلاة أركع وأسجد وهو غاضب ساخط لا يهدأ. وفي الليل
أتکور حول نفسي تحت الغطاء وأراه يأتي. بصوت آخر هادئ بلا
غضب. ووجه ناعم كضوء القمر وذراعه كذراع الأم حانية. يهدعني
ويملأ روحي بالحب الظاهر. ويرتفع بطني بالحمل المقدس. ثم أراه
يستدير. أظن أنه ذاهب بلا عودة. أنا دعي عليه بصوت خافت ويستدير
عائداً إلى بوجه آخر. قاتم اللون داكن الغضب في عينيه الشرر. افتح
فمي لأصرخ لكن جسمي مربوط في الأرض، وأصحو من النوم مبللة
بالعرق. وعلى ورقة بيضاء أكتب أول حروف في فوق أول رسالة إلى لا
أحد: رأيت الله في المنام. له وجهان وجه ناعم حنون كالأم والوجه
الآخر كالشيطان.

أول حروف الحب

لم يكن مسموماً أن نطل من النافذة. شرفات المستشفى الحربي تواجه نوافذ الممرضات. يطل رجال الجيش على البناء. والمبني الضخم يحجب عنا ضوء الشمس. ومن فوق الجدار العالي يتسلل الشعاع الرفيع وأنا واقفة خلف النافذة. ومن خلفي أحس الأصابع الغليظة تشدني إلى الخلف. أصابع رئيسة الممرضات. متوسطة العمر قصيرة القامة. ترتدي طرحة بيضاء وثوباً طويلاً أبيض كالراهبات. وجهها عريض أبيض ويداها سميستان. فوق صدرها ثلاثة نجوم ووسام البر والإحسان. قرص ذهبي على شكل النجمة تشبّه بدبوس في الفستان. صدرها تحت الحرير ارتجاج بارز. ثديان سمينان يسبقانها في المشي ومن الخلف يتأخر في السير ردافان كبيران. يهبط الردف الأيمن إذا ارتفع الأيسر. ويرتفع الأيسر بهبوط الثاني. كأنما كل نصف ليس في المكان الصحيح. وذراعاهما حين تقف يلتتصقان. وحين تمشي تحرّك ذراعاً واحدة وتبقى الثانية ملتتصقة بالجسم من الجانب. وفي النهار تطرق فوق البلاط بكعبين رفيعين من النحاس. وفي الليل تمشي حافية على أطراف أصابعها بغير صوت. تمر على العناير في الظلمة كالروح الضائعة بغير جسد. وحفييف ثوبها كصوت الهواء. وجهها ثابت بغير عضلات. وعينها في كل اتجاه تتحركان. رماديتان مستديرتان. وفوق كل عين حاجب مرسوم بالقلم الرصاص على شكل قوس. وأنفها من الجانب مرفوع نحو السماء. تظهر وتختفي كروح من

العالم الثاني أو واحدة من الأحياء كانت أو ستكون في زمن آخر.
في الليل وأنا نائمة أرهف أذني لصوت الهواء. التقط حفييف
الثوب ولمسة القدم للأرض غير المرئية. والقبض يدور في الباب وحده
تحركه الأرواح أو الشياطين. ثم أراها تدخل العنبر كالشبح الأبيض. تمر
بين الأسرّة تفتش على أحلام البنات. تدور عيناهما فوق الرؤوس النائمة
مثل الكشافات. رأس واحد في السرير. تعد الرؤوس على أصابعها كمن
يعد رؤوس الخراف، فإن غاب رأس أو ظهر في السرير الواحد رأسان
انطلقت زمارة الإنذار.

كنت في سريري ونعمه الله في سريرها. عيناهما مفتوحتان ليل نهار.
وجهها يزداد شحوباً وعيناهما تزدادان سواداً واتساعاً. إذا همست في أذنها
بالليل لا ترد. وإذا مررت بشفتي فوق وجهها لا تتحرك عضلات الوجه.
حوطتها بذراعي ونممت. وفي منتصف الليل فتحت عيني. كان سريرها
حالياً ومكانها إلى جواري خاويأ. المر الطويل مظلم وأنا أمشي فوق
الجدران ولا أقع. من وراء الباب المغلق أسمع الأنين. أدفع الباب بيدي
ولا أرى إلا البلاط. وفي الركن المظلم خلف الباب أجدها. متکورة حول
نفسها كالجنين. ومن تحتها الخيط الأحمر. أصابعها بيضاء خالية من الدم.
وفوق الورق حروف سوداء. مکورة في يدها وأصابعها متقلصة كالحجر.
لا أحد يستطيع أن يفتح يدها. ماذا كتبت في الورقة؟ سألتني الرئيسة ومن
خلفها طابور الرجال يرتدون القبعات الرسمية. قلت لا أعرف. قالوا كيف
لا تعرفين وهي معك الليل والنهار. قلت كانت معي لكنها كانت تعيش
في عالم آخر. قالوا أي عالم هذا؟ قلت لا أعرف لم أذهب إليه بعد.

وفي الليل حين تتلاشى الوجوه ويكتف الهواء عن الحفييف أراها
واقفة في الظلمة أفتح أصابعها الحجرية وأستخرج الورقة. تحت ضوء
القمر أرى حروفها فوق الورقة بالحبر الأسود.

الزوجة الشرعية لا تدخل الجنة

الهتاف يدوّي في أذني وفوق رأسي عرش السماء وتحت قدمي عرش الأرض. وحولي الحراسة مشددة. أعدائي كثيرون يتطلعون للعرش وأصدقائي قليلون يتنهرون فرصة موقٍ. عن يميني رئيس الأمن يتربص بي أكثر من الأعداء وعن يسارِي كاتبِي الكبير عينه اليمنى على رئيس حزب الشيطان وعينه اليسرى على زوجتي الشرعية. وهي واقفة في شرفة الحرير من حولها الزوجات المثاليات والأمهات الشهيدات والهتاف يدوّي في أذنيها وصواريُخ العيد وطلقات الرصاص. ترى وجهي يسقط من فوق جسدي لكنها تظل واقفة. عينها اليمنى على العرش وعينها اليسرى على صديق العمر.

منذ الطفولة وأنا أضمر له الحقد. يسبقني في امتحانات آخر العام ولا تروقه إلا فتاة أحلامي. يكتب لها الشعر ورسائل الحب وأنا لا أكاد أفك الخط. منحته لقب الكاتب الكبير وصفحة كاملة في جريدة الصباح وصورة داخل برواز يبتسم فيها للبنات ومع ذلك لا يكف. لا يهدأ والنار في قلبه منذ الطفولة لا تبرد. وهو واقف إلى جواري يسمع الدوي ويرى رأسي يهبط من السماء إلى الأرض والقيامة تقوم وهو واقف ثابت في مكانه كأبي الهول. وينتفي الأصدقاء والأعداء ولا أرى إلا وجوه رجال غرباء. يقتربون مني وأنا أخفِي وجهي في الأرض. لم ألتقي بأي واحد

منهم وجهاً لوجه. يعرفون وجهي من الصورة فوق طوابع البدائل والدمغة. أحدهم يقلب رأسي من فوق الأرض وينظر إلى وجهي. يندل لهم ليس هو الوجه الذي عرفناه. قالوا وجه منْ إذن؟ قال لا أعرفه، الله أعلم!

في عيونهم بدا وجهي أكثر رهبة من وجه الإمام. أكثر عظمة من أن يكون وجه إنسان. أبيض البشرة بغير دم وعظام الرأس صخرية ثابتة. سرت القشعريرة في أجسادهم وسجدوا خاسعين. هتفوا: إنه الله واقترب أحدهم مني أكثر ورأى وجهي داكن السمرة بلون الأرض فابتعد يجري، صائحاً: إنه الشيطان. وتبعه الآخرون يجرون هاربين. داس أحدهم وهو يجري على يدي وداس آخر على الوسام بجوار قدمي اليمنى. وأخفيت وجهي في الأرض حتى لا يراني أحد. ثم أحسست بيد ناعمة فوق رأسي. ورأيت وجوهاً أعرفها. وحين رفعوا وجهي إلى أعلى ونظرت في الملامح لم يتعرف واحد منهم على وجهي. وهمس صوت ناعم مألفاً يشبه صوت رئيس الأمن أو صوت زوجتي الشرعية: ليس هو. وهتف صوت آخر يشبه صوت كاتبي الكبير أو معارضي الشرعي: أنقذه الله فالله معه. وانطلقت الأصوات تهتف. يحيى الإمام. ودوت مدافع النصر وطبول العيد. ورأيت زوجتي ترك شرفة الحرير بخطوات ثابتة وجاثها كالأسد. وحين اختفت عن العيون بدأت تجري على كعبتها الرفيعتين حتى غرفة النوم.

كانت الستائر مسدلة وجثتي فوق السرير ومن حولي أبنائهما الشرعيين وغير الشرعيين ووزير الصحة يرش فوق جثمانى محلولاً مطهراً يمنع العفن. وفي الغرفة المجاورة أعوانى في حزب الله يتقاسمون الميراث. ودخلت زوجتي الشرعية وسقطت عيناهما على الفور فوق وجهاً بنتي غير الشرعية الواقفة إلى جواري. وعن يمينها أمها «جواهر» وعن

يسارها زوجتي القديمة. وانقلب الجو الذي كان صافياً ويدني كانت في يد ابنتي الناعمة أقبلها وألشمها. ورأيت زوجتي الشرعية تنقض كالنمر واختفت الوجوه من حولي إلا وجهها. وفي المخبأ تحت الأرض في حديقة القصر خبات جسدي بعد أن خلعت عني ملابسي الرسمية وجردت جيوبى من الفكة ونزعـت من أصابعـي خواتم الزواج والعرش.

وطلـت الجماهـير تهـتف باسـمي وأـنا في المـخبـأ وـفي الـوقـت ذـاتـه وـاقـف فوق المنـصـة أـلـقـي خطـبة العـيدـ. ولا أحد يـدرـك وجودـي في مـكاـنـين مـخـتـلـفين في وقت واحد إلا زوجـتي الشرـعـية وـرـئـيـسـ الأمـنـ. وـصـوارـيـخـ العـيدـ تـفرـقـعـ والنـاسـ تـهـتفـ ولا أحد يـتصـورـ أـنـيـ لـسـتـ الإـمامـ. وأـنـاـ نـفـسيـ لا أـتصـورـ وأـظـنـ أـنـيـ الإـمامـ وـالـزعـيمـ. وأـغـمـضـ عـيـنـيـ فـيـ رـاحـةـ أـسـتـمـتـعـ بـالـزـعـامـةـ دـوـنـ أـكـونـ زـعـيمـاـ. وأـتـحـركـ بـحـرـيـةـ دـوـنـ أـنـ أـرـتـديـ قـمـيـصـ الـوـقـاـيـةـ وـدـوـنـ أـنـ أـخـشـيـ الـاغـتـيـالـ. فـأـنـاـ أـعـرـفـ أـنـهـ قـدـ تـمـ اـغـتـيـالـيـ مـنـ قـبـلـ وـالـأـفـضـلـ أـنـ أـكـونـ إـمـاـمـاـ مـغـتـالـاـ عـلـىـ أـلـاـ أـكـونـ إـمـاـمـاـ عـلـىـ الإـطـلاـقـ. وـأـصـبـحـ اـسـمـيـ الجـدـيدـ إـلـاـ إـلـمـاـ الشـهـيدـ. وـأـكـسـبـيـ اللـقـبـ قـدـسـيـةـ أـكـبـرـ. فـأـنـاـ أـكـبـرـ مـنـ الـمـوـتـ وـعـلـىـ الـعـرـشـ أـجـلـسـ إـلـىـ الـأـبـدـ لـأـخـشـ الـأـعـدـاءـ وـلـأـأـصـدـقـاءـ. وـلـيـ قـدـرـةـ عـلـىـ التـحـلـيقـ فـيـ جـوـ وـالـنـتـقـالـ مـنـ الـعـالـمـ الـأـوـلـ إـلـىـ الـعـالـمـ الثـانـيـ وـالـثـالـثـ، لـأـخـشـ الـقـوـىـ الـعـظـمـىـ وـلـاـ الصـغـرـىـ وـأـجـلـسـ مـعـ أـكـبـرـ زـعـيمـ وـاـضـعـاـ سـاقـيـ الـيـمـنـىـ فـوـقـ الـيـسـرىـ. وـفـيـ الصـبـاحـ أـشـرـبـ الـقـهـوةـ فـيـ أـرـضـ الـشـمـالـ وـفـيـ الـظـهـيرـةـ أـتـنـاـوـلـ الـغـذـاءـ مـعـ أـهـلـ الـجـنـوبـ. وـفـيـ الـمـسـاءـ لـيـ سـهـرـيـ الـخـاصـةـ تـحـتـ الـأـرـضـ مـعـ «ـجـواـهـرـ»ـ فـيـ بـيـتـ السـعـادـةـ. وـإـلـىـ جـوارـيـ صـدـيقـ الـعـمـرـ نـشـرـبـ نـخـبـ الـحـبـ وـالـصـدـاقـةـ. أـنـعـمـتـ عـلـيـهـ بـالـلـقـبـ وـلـهـ صـفـحةـ كـامـلـةـ وـصـورـةـ دـاـخـلـ بـرـوـازـ وـلـيـلـةـ الـخـمـيسـ مـنـ كـلـ أـسـبـوـعـ نـسـهـرـ حـتـىـ الـفـجـرـ، نـسـتـعـيـدـ ذـكـرـيـاتـ الشـبـابـ.

- فـاـكـرـ يـاـ وـلـهـ الـبـتـ الـلـيـ اـغـتـصـبـنـاـهاـ سـوـاـ؟

وأقهقه بصوتي المهوري ضارباً بكتفي على فخذه. ويقنه هو الآخر رافعاً كفه ليضرب فخذي. ويتعدد لحظة متذكرة أنه فخذ الإمام وتظل يده معلقة في الهواء. وأقهقه مرة ثانية ضارباً بكتفي على فخذه متذكرة أنه كان في المدرسة يجلس إلى جواري داخل سرواله الغالي يضربني بكتفي من الخلف فوق الثقب المخبأ تحت يدي. وأقهقه للمرة الثالثة وفوق فخذه المشدود كفخذ النمر أضربه وأنا أقول: فاكر يا وله اسم هذه البت؟ ويقول مقههاً كان اسمها «جواهر» بيضاء كالقشدة يشف بياضها من تحت الساق وعيناها سوداوان واسعتان كعيون الحور. وينتقل عقلي على الفور من هذا العالم إلى العالم الآخر. وأرى الجنة ممتدة خضراء وأنا مدود فوق السنديس ومن حولي الحوريات سابحات في النهر عاريات تحت الشمس. وفي الضوء أتعرف على ملامحهن وليس من بينهن وجه زوجتي الشرعية. ويرتفع صوتي وأنا أقهقه للمرة الرابعة أو الخامسة وأضربه على فخذه المشدود متسائلاً. كم للرجل المؤمن من حوريات؟ ويقول: سبعون أو سبعة وسبعون والله أعلم. وكم للزعيم المؤمن أو الإمام؟

وأقهقه الكاتب الكبير وضرب رقماً خيالياً. لكن خيال الإمام كان أكبر. ثم سأله فجأة. وماذا عن زوجاتنا الشرعيات إذا دخلن الجنة معنا؟ وقال صديق العمر: زوجاتنا لن يدخلن الجنة. قلت لكن إذا حدث ودخلت إحداهن؟ قال يستبدلها الله بحورية عذراء. فالجنة لن يكون بها زوجات شرعيات، وإلا فما الفرق بين الجنة والأرض!

خيانة م مشروعه

منذ ماتت أختي بالحب تذكرت أنني لم أر وجه أمي منذ ولدتنى. والجدة العجوز نناديه ستنا الحاجة. تجتمع حولها في بيت الأطفال تحكى لنا عن أرواح الجان. جنية البحر تمشي في الليل على حافة البحر. رأسها امرأة وذيلها سمكة. يتحول الرجل بين يديها إلى مخلوق آخر. تسحره أو تسخنه فيصبح قرموط سمك أو عجلأً صغيراً أو خروفأً. يمأء بصوت خافت ويتمسح بساق امرأة أخرى قادرة على السحر. تفك طلسم المرأة الأولى وتعيده بشراً. يصبح رجلاً من جديد. يسير مختالاً برجولته ناسياً المرأة التي خلقته. يسعى إلى امرأة أخرى تسخنه من جديد قرداً أو جرواً صغيراً مقطوع الذنب. يمسح برأسه بين قدمي امرأة جديدة ساحرة. وتدور حكايات ستنا الحاجة. الليلة وراء الليلة. ألف ليلة وليلة تذوب البداية في النهاية كما يذوب النهار في الليل. وصوتها لا ينقطع وحكاياتها لا تنتهي حتى تبدأ من جديد. تخشى الانقطاع. كأنما انقطاع الحكاية يعني انقطاع حياتها مثل شاهزاد. من هي شاهزاد يا ستي الحاجة؟ وتبدأ الحكاية من جديد. ترك الزوج امرأته إلى امرأة أخرى وحين عاد وجد امرأته بين أحضان العبد الأسود. قتل الزوجة وأقسم أن يقتل كل ليلة عذراء. كان الزوج أبيض البشرة من سلالة الملوك يجلس على عرش الأرض. وفي كل ليلة يمتطي سيفه ويسأل الله. كيف تفضل

المرأة عبداً أسود على الملك شهريار؟ و يأتيه صوت من أعماقه يشبه صوت أبيه: لأن النساء خائنات بالطبيعة مثل أمهن حواء.

و قاطعتها وهي لا تكف عن الحكاية. لكن الملك كان يخون الملكة مع جارية سوداء. وقالت: وما له يا بنت؟ خيانة الرجل مشروعة بأمر الله لكن خيانة المرأة من الشيطان.

تساءلت وأنا طفلة لماذا كانت بشرة الملوك دائماً بيضاء وبشرة العبيد سوداء؟ كانت بشرتي سمراء فهل أنا من سلالة العبيد؟ بصقت ستي الحاجة في فتحة جلبابها وصاحت: أعود بالله من الشيطان الرجيم. الشر براءة وبعيد. أنت من سلالة الأسياد.

منذ فتحت عيني على الحياة في بيت الأطفال وأنا أسمعهم ينادوني بنت الله. ومنذ ماتت ستي الحاجة وأنا أنظر إلى بشرتي السمراء في المرأة. وفي أحلامي أرى وجه أبي أبيض كوجه الملك شهريار. من أين جاءتني البشرة القاتمة؟ هل خانت أمي أبي مع عبد أسود؟ هل أنا بنت الشيطان ولست بنت الله؟

وأرى نفسي أجري هاربة في الظلمة وليس معي إلا كلبي مرزوق. ومن خلفي رجال كثيرون يجررون ورائي فوق رؤوسهم قبعات عسكرية ومن خلفهم كلا بهم تلهمت. وأكاد أفلت حين أصعد الهضبة بين البحر والنهر. ويملاً صدري هواء المكان. في صدري حنين منذ الطفولة لهذا الهواء ورائحة أمي قبل أن تموت. وقدم أبي محفور فوق المكان قبل أن يهرب. كان يمكن أن أفلت منهم وأنجو لكنني تذكرت وتوقفت. وفي الوقفة أصابتني الطلقة في ظهري. كانوا يضربون من الخلف وأبدأ لا يواجهونني وجهاً لوجه. وقبل أن أنسى الحروف وتتلاشى الذاكرة سمعتهم يقولون: ثمرة الخطيئة ولمن يقتلها جائزة في الدنيا والجنة في الآخرة.

وَكُلْ شَيْءٍ بِغُتْنَه

كنت رافعاً رأسي إلى السماء مرتدياً وجه الإمام فوق صدرى النياشين، وفي يدي المسبحـة المقدسة من الكعبة الشريفـة وأضواء العالم الأول والثاني كالمرايا الدائـرية من حولـي. وهـاتـاف شعوب العالم الثالث والرابـع يـدوـي في أذـنـي: يـحـيـاـ الإمام مـطـبـقـ الشـرـيـعـةـ. وأـرـىـ وجهـيـ فيـ المـرـايـاـ مـائـةـ وجـهـ إـلـاـ وجـهـ وـاحـدـ. تـسـعـ وـتـسـعـينـ وجـهـ بـعـدـ أـسـمـاءـ اللـهـ الحـسـنـىـ. وكـلـماـ حـرـكـتـ رـأـسـيـ يـمـيـناـ أوـ يـسـارـاـ تـضـاعـفـ عـدـدـ وجـهـيـ. وأـنـاـ وـاقـفـ تـحـتـ الأـضـوـاءـ وـمـنـ تـحـتـيـ العـرـشـ وـمـنـ حـولـيـ الـأـعـوـانـ منـ حـزـبـ اللـهـ وـالـمـارـضـةـ الشـرـعـيـةـ منـ حـزـبـ الشـيـطـانـ. وـالـقـوـىـ الـعـظـمـىـ وـالـصـغـرـىـ وـأـعـلـامـ الـخـرـيـةـ وـالـدـيمـوـقـرـاطـيـةـ. وـصـوـتـيـ يـدـوـيـ بـخـطـبـةـ النـصـرـ وـضـوـارـيـخـ الـعـيـدـ تـفـرـقـ. وـتـسـكـرـنـيـ النـشـوـةـ بـغـيـرـ خـمـرـ فـأـتـرـنـحـ. وـفـيـ لـحظـةـ التـرـنـحـ يـسـقطـ وجـهـيـ منـ فـوـقـ رـأـسـيـ بـغـتـةـ وـيـسـتـقـرـ بـيـنـ قـدـمـيـ تـحـتـ المـقـدـدـ. أـقـدـامـ تـجـريـ فوقـ الـأـرـضـ وـتـدـوـسـ عـلـىـ قـدـمـيـ بـغـتـةـ وـمـقـعـدـيـ مـقـلـوبـ فـوـقـ ظـهـرـهـ بـغـتـةـ وـأـرـجـلـهـ الـأـرـبـعـ نـحـوـ السـمـاءـ. أـتـلـفـتـ حـولـيـ.. ماـذـاـ حدـثـ بـغـتـةـ؟

هل قـامـتـ الـقـيـامـةـ بـغـتـةـ؟

كانـ المـارـضـ الشـرـعـيـ وـاقـفـاـ إـلـىـ جـوارـهـ لاـ يـفـصلـهـ عـنـ العـرـشـ إـلـاـ رـئـيـسـ الـأـمـنـ، وـبـغـتـةـ سـمـعـ الصـوتـ يـسـأـلـ هلـ قـامـتـ الـقـيـامـةـ بـغـتـةـ. وـأـدـرـكـ

أنه صوت الإمام وأنه راقد إلى جواره تحت المقعد. واشتد ذكاء المعارض الشرعي وربط بعثة بين مقاعد سفينه سيدنا نوح واكتشاف الإشعاع النووي وقيام الساعة. كان الكاتب الكبير قد وضع رأسه بين قدميه بعثة وأغمض عينيه في راحة أبدية. وقال فاتحًا عينيه نصف فتحة إن التفكير في يوم القيمة بعقل دنيوي غير جائز في الشريعة. وإن يوم القيمة لا علم لنا عنه إلا من خلال كلام الله في القرآن. ومن يقرأ كلام الله بقلب مؤمن يدرك أن يوم القيمة حادث كوني لا يخص الأرض والناس وحدهم بل يشمل أيضًا بقية الكون. قال سبحانه: ﴿وَنَفَخْتُ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، ولا يقبل كلام الله الجدل أو المعارضة الشرعية أو غير الشرعية. فالقيمة تشمل الكون كله السماوات والأرض والاستثناء الوحيد بأمر الله هو خليفة الله في الأرض أي الإمام في عالمنا البشري. ويشير كلام الله إلى أن سكان الكواكب والقمر والشمس والأجرام الكونية الأخرى مصيرهم فيها كمصير أهل الأرض من حيث الموت بعثة. وأوضح الله أن مجيء يوم القيمة سيكون بعثة وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ وَجَدْنَا أَنْ تَأْتِيهِمْ غَاشِيَةً مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيهِمْ السَّاعَةَ بَغْتَةً﴾، والله ليس في حاجة إلى أسباب كالإشعاع النووي لقيام الساعة ولا تنقصه الوسائل لتدمير الكون حين يشاء بعثة.

وظهر الإعجاب في عيني الإمام ببلاغة كاته الكبير واتساع ثقافته الدينية وإلمامه بالشريعة. وتحول الإعجاب في عيني المعارض الشرعي إلى غيرة أشبه بالحقد. وبدأ يلقي له خطاباً أطول من خطاب الكاتب الكبير وأثبت فيه أن الصلة بين يوم القيمة وبين الإشعاع النووي أمر وارد وإن لم يرد له نص في القرآن. ونهض رئيس الأمن ينفض عن ملابسه ذرات التراب تلمع في الضوء كالإشعاع وبدأ يجري مطلقاً ساقيه للريح. تاركاً رئيس حزب الله ورئيس حزب الشيطان راقدين في أمان الله. لا يفصل

بينهما إلا الكاتب الكبير فاتحًا فمه في انبهار وقد أدهشته شجاعة المعارض الشرعي في طرحه لقضية الساعة وعلاقتها بالإشعاع النووي وأنها واردة رغم غياب النص. وتبادل الكاتب الكبير مع رئيس المعارضة ابتسامة عريضة امتدت من الأذن اليسرى إلى اليمنى ورأس كل منهما بين قدميه وبينهما الإمام صامت لا ينطق. وأطبق كل منهما شفتيه متظرًا كلمة الإمام فكلمته نهاية لا يعقبها سؤال ولا جدل. وظل الإمام صامتاً كأنما إلى الأبد وتشجع زعيم المعارضة وسأل: هل الإمام موجود؟ ويدا السؤال كفراً وكأنه يسأل هل الله موجود؟ وهو سؤال لا ينم عن الكفر بقدر ما ينم عن الإيمان المضاعف أو الرغبة في تدعيم إيمان القلب بإيمان العقل. وأصبح السؤال حدثاً رغم أن كل طفل يسأله وصاحب السؤال بطلاً من أبطال المعارضة. رممه الكاتب الكبير من تحت المعد بحسد وعاد إلى زوجته الرابعة منفرج الشفتين وأقسم لها بالطلاق ثلاثة إنه الوحيد الذي فتح جفنيه وشهد بعينيه اللحظة التاريخية، وأن جميع الرجال من أعضاء حزب الله أو حزب الشيطان لم يجرؤوا على فتح عيونهم، وظللت جفونهم مغلقة كأنما ماتوا بغتة فيما عدا رئيس الأمن الذي اختفى بغتة.

نشوة الحب

كنت لا أزال في مدرسة الممرضات وأختي نعمة الله فقدتها فداء الحب. وأخي فضل الله ذهب إلى الحرب فداء الوطن. وأنا لا أريد الموت كbish الفداء. وأقوم الليل أحفظ الكلام عن ظهر قلب لأقوله في الامتحان. ثم جاء حفل التخرج وتوزيع شهادة الخدمة والطاعة. تمشي الممرضات على شكل طابور أمام المنصة. تحصل الناجحات على لقب «الخادمة المثالية». ترتدي الثوب الأبيض وتلف شعرها برباط من الشاش. وتسير في الصف بخطوات بطيئة. وحين تقترب من المنصة تنحنن بالتحية. ومن فوق المنصة تجلس كبيرات نساء الدولة وزوجة الإمام في الوسط فوق مقعد له ظهر عالي. وعن يمينها رئيسة الجمعيات الخيرية ترتدي وجهها المطاطي. وعن يسارها رئيسة الممرضات ووسام البر والإحسان مشبوك فوق الصدر بالدبوس. ومن بعدها تأتي الصفوف. أرامل الشهداء والأمهات المثاليات والنساء المتطوعات للخير. كلهن شكل واحد ولا يمكن أن تفترق الواحدة عن الأخرى. جالسات صامتات واجمات وأيديهن مشبوبة فوق الصدر. وحين تنهض زوجة الإمام ينهض واقفات. وتظل أيديهن كما كانت فوق الصدر مشبوبة. وأقترب من المنصة بخطواتي الجنائزية. وأرى الزوجة الجديدة أقصر قامة في الوقوف عنها في الجلوس. رأسها لا يكاد يظهر من وراء المنصة. ومن حوله

حجاب ملفوف من الحرير المستورد. يلتف حوله عقد من الماس يعكس الشمس وعقد آخر حول العنق و«البروش» فوق النهد والأساور حول المعصم والخواتم في الأصابع. وكلما امتدت يدها إلى الأمام أو الخلف اهتز الكون بآلاف الأضواء.

رأيت هذا المشهد من قبل حين تخرجت في بيت الأطفال. وكان في مقعد الرئيسة رجل لا أكاد أذكره. رأسه كبير بغير شعر وصدره يغطيه الشعر. وكانت الزوجة الجديدة أكبر حجماً حلقة الرأس بغير حجاب. ونساء الجمعيات الخيرية كلهن شكل واحد. جسم مربع كبير ممتليء باللحم ورأس صغير ملفوف الشعر بالدبابيس. وقدمان سميتان تهتزان أثناء الجلوس في الهواء. وتطرقان أثناء السير فوق الكعب الرفيع بصوت عال.

وجاء دوري لتسلم الشهادة واقتربت من المنصة. وامتدت اليدي الناعمة نحوي ومن حولها تشع النجوم. والأجسام المربعة على الجانبيين واقفات فوق الكعب الرفيع ثابتات. وأيديهن البضة مشبوبة فوق الصدر. ومع كل جائزة أو شهادة تتحرك اليد من فوق الصدر لتلامس اليد الأخرى في حركة ثقيلة. ويسمع التصفيق كحشرجة أنفاس متقطعة بطيئة.

وسلمت الشهادة وفي قلبي ارتجاج. وأطراف الأنامل لامست أصابعي لمسة كهرباء. وانطلقت في طريقي فياضة الحماس. أحمل العلم وأرفع صوتي بالهتف. الله والوطن ويحيا الإمام. أختي ماتت لرجل واحد وأنا أعيش لكل الناس. الاستقلال التام أو الموت الزؤام. وفي النهار أنتقل من جريح إلى جريح أحمل وعاء البول والبراز. وفي الليل أظل ساهرة أرهف السمع لصوت الأنين. أراه في الضوء الخافت راقداً شاصاً نحوي بوجه شاحب. في صدره جرح غائر وفي عينيه حنين.

وفي الظلمة أسيير إليه وأقول: فضل الله ذهب إلى جبهة القتال أرأيته هناك وهل لا زال يعيش؟ ويقول: مَنْ هو فضل الله أهُو زوجك؟ وأقول إنه أخي في الرضاع وفي بيت الأطفال كان. وأسكت لا أكمل الكلام. ويقول لماذا سكت؟ وأقول ماذا أقول؟ يقول إحكي لي عن نفسك. ماذا أحكي؟ إحكي كل شيء. ولا أعرف ماذا أحكي. حياتي تبدو مليئة بالأسرار وحين أبدأ الكلام تبدو خالية ولا شيء فيها يقال. وحوطني بذراعيه كالأم وقال نامي ولا تخافي. وأغمضت عيني ونممت، وفي النوم ذهب عني الخوف. بدأت أحكي حياتي ومع كل حكاية يتحرر لساني وقلبي يخف وجسمي يطير كالروح بلا جسم. وفي الطلعة فلت مني الشهقة وأنا أحلم بالصعود. عشرون عاماً منذ ولدت وأنا أرى هذه الهضبة بين البحر والنهر، وأمي واقفة تنتظرني ورائحة الهواء لم تغب عن ذاكرتي، والشجرة، والصخرة، وذرات الهواء، أستنشقها فهي وطني ورائحة حياتي، أحوطها بذراعي، أملاً صدري كأول نفس عند الولادة وأآخر نفس قبل الممات. ولأول مرة أشم البحر وملوحة الماء واليود وأنفاس العشب وال الواقع والسمك الطازج. وتركت نفسي لهواء البحر يملأني ويعرقني. وأمواجه ترتفع في الليل بيضاء في السماء تحوطني كأذرع الله. وهو إلى جواري يعانقني يحدثني:

- أتحبّين السمك المشوي؟

- جداً جداً.

- أتحبّين الرأس أم الذيل أكثر؟

- أحبّهما، الإثنين معاً.

وترنّ ضحكتها الطفولية في الكون كمحارة تنفتح للشوق. وهواء البحر أصابها بجوع للحياة كالنهم. وحواسها الخمس تستيقظ كالموخ.

وأنوار النجوم تلمع فوق البحر كقصوص اللؤلؤ. وأوراق الشجر مع الأمواج مع الهواء تذوب في نداء واحد. وعيناها السوداوان الواسعتان تتسعان لنسمة الحب حتى الإغماء. وتغمض عينيها تنام فوق صدره كالطفلة يهددها وصوته في أذنها يأتيها من بعيد: أحبك.

حين كان الحب أعمى

كنت لا أزال في نشوة الحب وأغمض عيني حين يلامسني الحب
فلا أراه وأحس قلبي كبيراً بحجم قرص الشمس. وجسدي محارة تفتح
للسوق. وهواء البحر يواظب حواسي الخمس. وصوته في أذني كالهمس.
يأتيني من بعيد كنداء الأم. وأنوار النجوم في الليل كقصوص الماس.
وكنت لا أزال أسير في طابور المرضات. وأحمل لقب الخادمة المثالية.
وأهتف في عيد النصر «الله والوطن والإمام.» وفي غمرة الحب
والحماس نسيت أن أختي ماتت بالحب. وأخي ذهب إلى الحرب ولم
يعد. وقلت الحب هو الحياة وليس الموت. وال الحرب من أجل الوطن هي
الحب. وفي جبهة القتال رأيتني واقفة وسلامي على كتفي. جاهزة
للموت أصوّب الطلقة للأعداء. وفي الليل أركض إلى جوار الزملاء.
أركض وأركض، وفي الخندق أختبئ ثم أعود أركض، وفي الخندق
أختبئ ثم أخرج من بطن الأرض أركض وأركض. وفي الظلمة أرى
وجه العدو. أعرف الوجه لا أخطئه. أصوّب الطلقة في نقطة الوسط بين
العينين وأضغط على الزناد. يسقط الوجه إلى الأرض ومن خلفي أسمع
وقع الأقدام تدب بأحذية حديدية. أظن أنهم الأعداء فأركض وأركض.
وعند منعطف الطلعة بين البحر والنهر أنوقف. فهذه منطقة الأمان.
أعرف المكان وأعرف رائحة الشجر والماء. وأسير بخطى بطيئة أستنشق

الهواه. وأسمع من خلفي وقع الأقدام. قلت إنهم الأصدقاء لا بد
وجنود الوطن وفي مقدمتهم رئيس الأمن ومعه الوسام يحمله إلى نيابة عن
الإمام. وحين أصابتني الطعنة في ظهري استدررت وتساءلت باندهاش:

لماذا تضربوني وقد ضربت العدو؟ قالوا إنه الصديق وليس العدو.

قلت كان هو العدو بالأمس.

قالوا كان ذلك الأمس واليوم غير الأمس.

معاً في الخندق

عيناها سوداوان واسعتان تتسعان لدهشة الكون. تدوران حولها في الظلمة الداكنة. نجم واحد تراه في مساحة هائلة سوداء. يتحرك بسرعة الضوء وصوته يدوي كالرعد. يقترب من الأرض ويسقط منفجرأ شعلة نار. بحر من اللهيب الأحمر وعيناها مفتوحتان لا تعرف الليل من النهار. انطفأت النار ولم يبق إلا دخان أسود ورائحة تراب في أنفها. تحت يدها اليمنى ملمس السلاح ويدها اليسرى في يده. صوته في أذنها: أطلقت عليه النار وسقط.. أظري. أطلت برأسها من حافة الخندق. لم تر شيئاً. دخان كثيف كالليل بغير نقطة ضوء. وجهه أيضاً لا تراه. قالت لا أراك. قال وأنا أيضاً لا أراك. حملت في الظلمة. رأته واقفاً إلى جوارها في الخندق يده على الزناد وسلامه لا زال نحو السماء. قال سقط واحد ولا زال آخرون. وفي الظلمة رأت يده ممدودة إليها قابضة على ورقة مطوية، وقال: لو مت إذهبني إلى أمي واعطيها هذه الرسالة.

همست: مَنْ أَمْك؟ قال هي أمي وبيتها إلى جوار بيت الأطفال واسمها بيت السعادة. وعرفت أنه فضل الله وأنه لا زال يعيش ولا زال مشوق الظهر مرفوع الرأس. بشرته سمراء بلون الطمي ووجهه شاحب نحيل. ينظر في عينيها مباشرة دون أن يحرك عينيه إلى أسفل. في بريق عينيه انبهار الطفولة ونظرته ثابتة لا يبهره شيء. قالت هل ترانى بوضوح

فِي الْمَلَائِكَةِ فَأَنَا بُنْتُ اللَّهِ . وَعُرِفَتْ مِنْ وُجُوهاً وَعَيْنِيهَا وَرَائِحَةً شَعْرِهَا .
.. إِلَهَاهَا حَنْ نَعْمَةُ اللَّهِ قَالَتْ مَاتَتْ بِالْحُبُّ ، قَالَ وَأَنْتِ؟ قَالَتْ أَنَا أَعِيشُ
بِالْحُبُّ . وَحَوْطَتْهُ بِذِرَاعِيهَا ، وَقَالَتْ مَاذَا كَتَبْتِ لِي فِي الرِّسَالَةِ؟ قَالَ كَتَبْتِ
أَقُولُ لَكَ لَا تَخْزِنِي يَا أُمِّي ، لِأَنِّي لَمْ أَرَكْ مِنْذُ ولَدْتُ وَلَمْ أَدْخُلْ بَيْتَ السَّعَادَةِ
حَيْثُ أَنْتِ وَحَيْثُ الْحُبُّ ، لَكِنَّ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ هُوَ الْحَيَاةُ مِنْ
أَجْلِكَ ، فَهَلْ تَغْفِرِينِ لِي غِيَابِي الطَّوِيلِ إِلَى الأَبْدِ؟ وَأَغْمَضْتِ عَيْنِيهَا وَقَالَتْ
أَرَاكَ كَمَا كُنْتِ وَكَانَمَا غَيَابُكَ كَانَ بِالْأَمْسِ وَلَمْ يَفْارِقْنِي وَجْهُكَ يَوْمًا .
وَأَغْمَضْتِ عَيْنِيهِ وَنَامَ عَلَى صَدْرِهَا كَمَا كَانَ يَفْعَلُ وَهُوَ طَفْلٌ ثُمَّ اسْتِيقَظَ
فَجَاءَ وَأَدْرَكَ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ طَفْلًا وَهِيَ أَصْبَحَتْ اِمْرَأَةً مَكْتُمَلَةً النَّضْجِ .
وَحَوْطَهَا بِذِرَاعِيهِ فِي الْخَنْدَقِ فَأَصْبَحَ الْخَنْدَقُ ضَيْقًا بِذِرَاعِيهِ وَالْكَوْنُ فِي
عَيْنِيهِ كَبِيرًا كَفَرْصَ الشَّمْسِ . وَحَوْطَتْهُ بِذِرَاعِيهَا فِي الْخَنْدَقِ وَالْمَكَانِ يَضْيقُ
وَعَنْاقَهُمَا يَمْلأُ الْأَرْضَ ، وَحِينَ كَشَفَهُمَا الضَّوْءَ ظَلَّاً مَتَعَانِقَيْنِ ، وَفِي لَحْظَةِ
الْعَنَاقِ تَوَقَّفُ الْعَالَمُ يَرْقُبُ مَشْهِدَ الْحُبُّ ، وَهُمَا مَتَعَانِقَانَ كَشَخْصٍ وَاحِدٍ ،
وَلَا أَحَدٌ مِنْهُمَا يَنْفَصِلُ عَنِ الْآخَرِ أَوْ يَخَافُ الضَّوْءَ أَوْ يَخَافُ الْمَوْتَ ،
فَكُلَّاهُمَا قَدْ مَاتَ مِنْ قَبْلِ .

وَهُوَ يَلْتَصِقُ بِهَا أَكْثَرُ وَأَكْثَرُ يَرِيدُ الْفَنَاءَ فِيهَا . وَهِيَ تَلْتَصِقُ بِهِ أَكْثَرُ
وَأَكْثَرُ تَرِيدُ الْفَنَاءَ فِيهِ . وَكُلُّ مِنْهُمَا قَدْ أَصْبَحَ هُوَ الْآخَرُ . هِيَ أَصْبَخَتْ
هُوَ ، وَهُوَ أَصْبَحَ هِيَ . وَلَمْ يَعُدْ فِي الْكَوْنِ قُوَّةٌ تَفْصِلُ الْوَاحِدَ مِنْهُمَا عَنِ
الْآخَرِ ، لَا دُويَّ الْمَدَافِعِ وَلَا الصَّوَارِيخِ ، وَلَا هَدِيرَ الْعَدُوِّ وَلَا الصَّدِيقِ ،
وَلَا صَوْتَ الْإِمَامِ أَوِ الشَّيْطَانِ أَوِ رَئِيسِ الْأَمْنِ .

ثُمَّ فَتَحَتْ عَيْنِي وَوَجَدْتُنِي وَاقِفَةً فِي الْخَنْدَقِ وَحْدِي وَفِي يَدِي
الرِّسَالَةِ مَطْوِيَّةً . أَيْنَ اخْتَفَى فَضْلُ اللَّهِ؟ هَلْ مَاتَ فِي الْحَرْبِ أَمْ أَخْذُوهُ
وَمَاتَ فِي السَّجْنِ؟ وَمَنْ بَعِيدٌ سَمِعَتْ أَنْفَاسَهُمْ تَلَهُثُ يَرْكَضُونَ خَلْفِي
وَأَقْدَامُهُمْ تَدْبُّ عَلَى الْأَرْضِ بِأَحْذِيَّةٍ حَدِيدِيَّةٍ . وَبِدَائِتْ أَرْكَضَ فِي الظَّلْمَةِ

أنجو بحياتي. وهم من خلفي يحررون ومن خلفهم كلامهم تنبع. وأنا أجري ولا أعرف لماذا أجري. وكدت أفلت منهم عند منعطف الطلعنة قبل طلوع الفجر لكن أحدهم أصابني من الخلف. وقبل أن أسقط وأنسى الحروف، قلت كان معي في بيت الأطفال وهو أخي في الرضاع. قالوا جريمتك مضاعفة في الدنيا والآخرة فأنت بنت حرام وهو ابن حرام، وليس له في حزب الله أو حزب الشيطان اسم.



لا زلت أجري والظلمة داكنة. أسمع دبيب أقدامهم الحديدية تركض خلفي. أتحسن بطني في الظلام. تحت كفي الارتفاع الناعمة دافئة كالحب. وصوته يأتيني من بعيد في الظلمة كصوت أمي يناديني. بنت الله تعالى. يقترب مني حتى يلامسني. أحوطه بذراعي ويحوطني. رجفة غامضة تهزني. قشعريرة. يهمس بصوت ناعم. لا تخافي أنا الله وسوف تلدين المسيح. الظلمة داكنة وأنا أجري وفي يدي الرسالة مطوية أحوطها بأصابعه وأخبيها في صدري. أسمع أنفاسهم كاللهاث من خلفي. قلت لن يصلوا إلي قبل أن أبلغ الرسالة. سأخاطر بحياتي لأنجو بها، فهي حياتي. سأخاطر بالموت رجما بالحجارة كما فعلت مريم العذراء لتلد المسيح، وكما فعلت أمي لتلدي. وعند منعطف الطلعنة بين البحر والنهر عند عالمة الأمان عرفت رائحة المكان. وتوقفتأشكر الله على النجاة. وكان يمكن أن أنجو لولا أنني توقفت لأصلي، وأصابوني من الخلف. دائماً يضربون من الخلف وحين استدير يهربون. أبداً لا يواجهون. وقبل أن أسقط وأنسى الكلمات قلت كنت أصلي وأنا أحمل ثمرة الحب، وقال رئيس الأمن لا شيء اسمه الحب إنها ثمرة الخطيئة.

الخوف الجماعي

في ليلة العيد وطبول النصر تدق والزمامير، عثروا على جسدها ملقى في الطريق من البيت إلى الجبهة عند منعطف الهضبة بين البحر والنهر. وجدوها ملقة فوق ظهرها وعيناها سوداوان مفتوحتان ثابتتان في السماء. وجهها ساكن بلا حركة والكون كله ساكن يطل عليها وهواء الليل لا يحرك شعرة واحدة من رأسها وعند فتحة الأنف سكنت الشعيرات. بشرتها سمراء بلون الطمي يسقط عليها ضوء القمر فتصبح بيضاء كحورية الجنة أو جنية البحر. عارية تماماً كما ولدتها أمها لا ثوب ولا قميص ولا سروال. وبدت في عريها آثمة رغم موتها، فالمرأة لم تكن تتعرّى في حياتها أو موتها وإن خلعت الطرحة تظل بالجلباب وإن خلعت الجلباب تظل بالقميص وإن خلعت القميص تظل بالسروال، ولا يمكن أبداً أن تتجبرد من السروال قبل الموت أو بعده. كان ظهرها للأرض ووجهها ناحية السماء وحلمة الثدي نافرة كالزبيبة السوداء وبين الساقين جرح عميق في اللحم ويدها اليمنى فوق الجرح كأنما تخفيه. وما دامت تخفيه فهي التي صنعته وهي التي قتلت نفسها. وقتل النفس جريمة. تمُرُّد على إرادة الله، فالله وحده هو الذي يقتل. وأصبحت جريمتها بعد موتها في نظرهم جرائم العُري والقتل. وأضافوا إليهما الجريمة الثالثة فهي ولدت بغير أب وبغير أم، وكان اليم عندهم عيّاً، وبات اسمها الثاني

بغير أب ولا جد داخل ملف أزرق في مكتب الأمن منسوب إلى الأم، وأمام كل اسم جريمة ثلاثة. القتل والعار واليتم.

وكانت الليلة عيداً. دارت السنة وجاء عيد الأضحى مع عيد النصر وأصبح العيد عيدين اثنين، والناس تجمعوا تحت المصابيح وجلسوا القرفصاء. وجوههم طويلة شاحبة رمادية وعظام الرأس يشتد بروزها عند عظمة الأنف. ومن فتحات الوجه ينفتحون الدخان والكلام. ومن تحت الشوارب المدودة فوق الشفة العليا تخرج أنفاسهم كالسعال. يبتلعونه في صدورهم مع الدخان ومعه الكلام. يعطسون ويرمقون السماء بحذر ويبحكون الحكايات عن الملوك والآلهة والعفاريت والجان. ويقول أحدهم: إيه يا جدعان والله زمان حين كنا نعبد الشمس وإله الفيضان. ويرد أحدهم: أي والله لم يكن إله الفيضان يسكنت عنا إلاّ بعد أن نرضيه بالبنت العذراء. لم يكن يحب المرأة التي تزوجت من قبل أو المرأة الأرمل أو المطلقة. ويقول أحدهم: أما إله لئيم يا جدعان. ويقول الآخر: كل الآلهة كانوا كده، ويطوف الجنود ببيوت الفلاحين يمسكون العذراء البكر. تختفي البنات فوق الأفران أو تحت التبن داخل الجرن. ويظل الإله غاضباً لا يهدئ غضبه إلا دم العذراء. ويقول أحدهم: ولا الملك شهريار في زمانه. ويرد الآخر: الملك شهريار بس، كل الملوك كده لغاية النهاردة. يصمتون فجأة يبتلعون أصواتهم مع أنفاسهم مع الدخان ويرمقون بوابة الأمن بحذر. وأجسامهم مسنودة فوق عظمة الكوع تصنع حفرة في الأرض. يزحف إليها طابور من النمل على شكل خط طويل منتظم تقدمه الملكة. ترى الكوع الأسمر بلون الأرض. تدرك أنه ليس الأرض ويمكن أن يتحرك فجأة ويهبط فوق رأسها يهشمها. تغير الملكة اتجاهها وتلفّ حول الكوع وتسلك الطريق الآخر بعيداً عن الحفرة. ويلتوي الخط المنتظم وراءها ليصبح دائرة منتظمة ثم يعود خطأً طويلاً منتظماً.

التي الأسود في عيونهم تحت الضوء ثابت فوق جيش النمل المتنظم يضربون كفأ بكف. يمصمصون شفاههم. جيش من الذكور يتبع الأنثى؟ حكم الله عليهم بالعبودية والزحف فوق بطونهم إلى الأبد. يقبلون بطن أياديهم وظهرها ويشكرون الله. طابورهم لا ينتظم وإن جاء الحارس بالعصى ورئيسمهم ذكر وليس أنثى. يعطسون ويسعلون ويرصون الدخان في الجوزة ويغيرون مراكز ارتكازهم فوق الأرض من الكوع الأيمن إلى الكوع الأيسر. في آذانهم أصوات الصواريخ والهتاف والأنشيد. يذكرون أنه عيد النصر وعيد الأضحى معاً. ودارت السنة وجاء مع العيددين عيد ميلاد الإمام وأصبح العيد «ثلاثة أعياد». والليل يحيء داكن الظلمة وجفونهم تثقل بالنعاس وقلوبيهم ثقيلة كالحجر والنار تخبو في الجوزة. ويدذكرون موتاهم في الحرب والمفقودين لا ماتوا ولا عادوا، والمقطوعي الأيدي والأرجل من خلاف، والمرجومين والمرجومات، والمعتقلين والمعتقلات ومشوهي الحرب والشهداء. والذين شربوا الموت مع لبن الصباح وماتوا بالإشعاع، والذين لم يموتوا بعد لكنهم حتماً موتى بأمر مولانا. ويشفطون آخر نفس في الجوزة وينتهي الدخان وتنطفئ شعلة النار، يبتلعون آخر الكلام في معدة خاوية بغير عشاء ولعاب طعمه مر، واكتشفوا أخيراً قبل غيبة النوم أن مركز ثقلهم فوق الأرض ليس هو الكوع الأيمن ولا الكوع الأيسر وأنهم ليسوا جالسين وليسوا واقفين. يتحركون بخطى زاحفة كالنمل. إلا أن طابورهم متعرج. يتدافعون بالأيدي والأرجل وكوع كل منهم يصنع في بطن الآخر حفرة. ورأس كل منهم يمتد فوق الرأس أمامه وعنقه يشرئب يحاول أن يرى أول الطابور، ولا أحد يرى شيئاً، فالطابور طويل متعرج كاللولب يمتد بطول البصر وينتهي عند الأفق بالتقاء السماء. والشيء الأسود داخل عيونهم يدور حول نفسه. والصوت يرن في آذانهم لا يعرفون دوي الصواريخ من دوي الهتاف وينخلط الصراخ بالزغاريد.

ويفيقون فجأة فاتحين جفونهم متذكرين أنه العيد، وأنهم يرتدون أحذية جديدة يدبون بها على الأرض، وفي كل حذاء حدوة حصان من الحديد، منحة العيد بأمر الإمام وعلاوة الغلاء آخر الشهر. دببيهم فوق الأرض مسموع. الصف وراء الصف متعرج كجيش نمل بلا ملكة وعيونهم تدور باحثة في الكون عن الرب. أين أنت يا رب؟ وفي منعطف الطلعة بين البحر والنهر يتوقفون ينظرون ويشهقون. كانت ممدودة فوق الأرض وجهها للسماء وعيونها السوداوان مفتوحتان. هزوا رؤوسهم الملفوفة وقالوا لا إله إلا الله ماتت موتة ربنا فربنا يميت الناس. ثم قال أحدهم ليست موتة ربنا فأنا أعرف القاتل، والقاتل ليس ربنا. استغفروا الله بعد كلامه فلا أحد يموت بيد أخرى غير يد الله. وكتموا أنفاسهم محمليز في السماء متصورين أن الله له يد يرونها بالعين. وسجدوا حتى لامست جماهم الأرض. سبحانه ليس له يد ولا لسان. قربوا رؤوسهم وهمسوا في آذان بعضهم بعضاً، ثم رفعوا عيونهم مستغفرين الله هاتفين الله والوطن والإمام. إن بعض الظن إثم يا جدعان ولا أحد يموت بغير إرادته سبحانه. وصاحوا في نفس واحد: لا إله إلا الله ثم دفونها في التراب. وفي التراب ظل قلبها ينبض. قالوا ثلاثة أيام ظل قلبها ينبض بعد الموت. وسبعة أيام روحها ظلت تحوم حول القبر. وفي اليوم الثامن تركت روحها القبر وبدأت تسير نحو الطلعة بين البحر والنهر. وأقسموا بالله العظيم أنهم رأوها بعيونهم تسير فوق قدميها الاثنين. خطوطها السريعة لم تتغير ورأسها المرفوع ومن خلفها كلبها مرزوق. قالوا إنهم لم يرونها إلا من الخلف ولا أحد استطاع أن ينظر إليها من الوجه. وأقسموا بالله والوطن والإمام ثلاثة أنها هي ولا أحد غيرها. وأن روحها خرجت من القبر لتنتقم منهم وبات كل منهم يرتعد. أصبح الخوف يلازمهم ليل نهار ك أجسامهم. لا يحول بينهم وبين الخوف غطاء ولا جلباب. يخافون حتى وهم داخل المرحاض والباب مغلق. يتصورون أنها يمكن أن تخترق

أي باب وتنفذ من أي جدار وتراهם من حيث لا يرونها. فإذا تسلل الواحد منهم من فراش زوجته لأمرأة أخرى رأته. وإذا مد يده في جيب الآخر رأته. وإذا خلع ملابسه وبات عارياً رأته. وإذا أمسك عورته وهو نائم رأته. أصبحوا يخافون منها كما يخافون الله. وبدت لهم في النوم كأنما هي الله. ولا أحد يشعر بالبراءة وكل منهم قذفها بحجر وقلوبهم ثقيلة بالذنب وجفونهم ثقيلة بالنوم. وفي الليل يرقدون متلاصقين يخاف الواحد منهم أن ينام وحده أو يفتح الباب ويخرج في الظلمة وحده. جميعهم يخافون إلا اثنان لم ينالاها بالأذى. أمها وكلبها مرزوق. تظل الأم واقفة في الظلمة تتنتظرها. ثابتة في مكانها كالصخرة. وجهها إلى السماء ورأسها مرفوع. يداها كبيرة مضمومتان فوق قلبها. إلى جوارها يرقد مرزوق متكوراً للأطفال. وجهه طويل شاحب وعي睛اه خالية من الدمع. زاوية كل عين تلمع في الظلمة كالدمعة المتجمدة. أذناه منتصبتان مرهفتان تلتقطان وقع قدميها قبل أن تظهر. عنقه ممدود وأنفه مشرئب يتقطط رائحتها من الكون وعي睛اه تلتقطان عينيهما من بين ملايين النجوم. وقبل أن يراها يجري إليها يشب بأقدامه كالطفل يشب على صدر أمه. يمسح عينيه في ذيل ثوبها ويلهث ويسمح لهااثها ويرى خيط الدمع بلون الدم والطعنة في ظهرها.

حب إلى الأبد

قال لها: أنا أحبك إلى الأبد.

قالت: لا تقل إلى الأبد حتى أصدقك.

قال: صدقيني حبي لك مستمر إلى الأبد.

قالت: أرجوك لا تقل إلى الأبد كي أصدقك.

قال: أقسم لك إني أحبك إلى الأبد.

قالت: وبماذا تقسم؟

قال: أقسم بالله والوطن والإمام.

قالت: أصدقك وإليك حياتي. عقلي وقلبي وجسدي هو أنا وأنا في الحب شيء واحد. وفي الصباح رأت صورته منشورة في الجريدة داخل برواز كبير وخبر زفافه لابنة رئيس الأمن ووسام الشجاعة فوق صدره في عيد النصر.

قالت: قلت لي بالأمس إنك تخبني.

قال: كان ذلك بالأمس واليوم غير الأمس.

قالت: هل تخلص للوطن وتخونني؟

قال: أنا لست رجلاً واحداً. أنا رجالان اثنان. ومنْ كان معك

بالأمس ليس أنا وإنما الرجل الثاني. ولا زلت أحبك فالحب شيء
والزواج شيء ثانٍ.

قالت: تزوجتها بغير حب؟

قال: كان أبوها يطاردني كالشيطان، وقلت آمن شره وأمتلك قرة
عينيه فيصبح في يدي وطوع بناي. كنت في حاجة إلى امتلاكها، وإذا
كانت هناك حاجة فليس هناك حب.

وفي الليلة الثانية رأها بين أحضان رجل آخر وارتعد حين رأى
وجهه. كان هو رئيس الأمن ذاته.

قال: أتخونيني مع رجل آخر؟

قالت: أنا لست امرأة واحدة، أنا امرأتان اثنتان، ومن كان معك
الأمس ليست أنا وإنما المرأة الأخرى، ولا زلت أحبك إلى الأبد فالحب
شيء والزواج شيء آخر. قال: أهو زوجك؟ قالت: كان يهدّد أبي
بالسجن وقلت آمن شره وأتزوجه فيصبح في يدي وطوع بناي. كنت في
حاجة إلى امتلاكه، وإذا كان هناك امتلاك فليس هناك حب.

وتعانقا في الليل الهدئ بعيداً عن العيون وكلاهما يقسم بالله
والوطن والإمام أنه يحب الآخر إلى الأبد. وفي قمة النشوة قال لها يمكن
للرجل أن يجمع في الشريعة بين أربع زوجات في وقت واحد، أما في
الحب فهي امرأة واحدة. وسألته أنت في حزب الله أم في حزب
الشيطان؟ قال أنا في الحزبين. قالت: هل يمكن للرجل أن يجمع بين
عضوية حزبين مختلفين في وقت واحد؟ قال: لا يوجد في الشريعة نص
يحظر جمع الرجل بين عضوية حزبين في وقت واحد. قالت: ولماذا تدخل
حزب الله وحزب الشيطان معاً؟ قال: أؤمن بوجود الله وأؤمن بوجود
الشيطان، وأخافهما الاثنين، وقلت آمن شرهما وأدخل حزبيهما.

قالت: أنت تعيش في خوف إلى الأبد.

الكاتب الكبير

ضعي يدك على رأسي ولا تفارقيني فأنت الوحيدة في العالم التي يمكن أن تراني وأنا أموت دون أنأشعر بالخزي. وإذا جاءت زوجاتي الأربع فاغلقني بيني وبينهن الباب حتى لا يشمن في موتى. وإذا جاء الرجل ومعه جردل الماء ليغسلني امنعيه من الدخول. منذ مات أبي ورأيت الرجل يقلبه على وجهه ويدس اصبعه في الثقب أسفل الظهر قررت الموت دون غسل. ولماذا يغسلون جسدي الميت ثم يضعونه في التراب؟ لكن هؤلاء الناس يا أمي يعيشون بلا عقل ويموتون بلا عقل. ومنذ منحني الإمام لقب «الكاتب الكبير» أصبح لي بيت جديد وزوجة جديدة وأثاث من أجود الأنواع لا أشعر بالخزي إذا رأه الإمام لو زارني في يوم من الأيام. ومنذ منحني اللقب والوسام في عيد الأدب والفن وأنا لا أفارقه في الحياة أو في الموت. قال لي إخلاصك لي إلى الأبد وجعلني أقف أمامه ممسكاً بكتاب الله وأقسمت له بالولاء. قال أنا الإمام ولا شريك لي في الحكم، وأنت الكاتب الكبير ولك في الجريدة كل يوم صفحة وصورة داخل برواز مقعد إلى جواري لا يفصلني عنك إلا رئيس الأمن. وفي الليل لا يكون فاصل بينما نشرب نخب الصداقية القديمة منذ الطفولة. ولم أدرك يا أمي وأنا واقف إلى جواره في الصف الأول ومن حوله الأضواء والهتاف يدوبي وأقواس النصر مرفوعة أنه يمكن أن يسقط

أو يموت كما يموت البشر. وكنت لا أزال أملك عقلي داخل رأسي لكنه كان معطلاً، لا أدرى كيف. ونسرت أن أبي مات وأخرين ماتوا أمامي، وصفحات الجرائد تمتلئ كل يوم بأسماء الموتى. وفكرة الموت لا تفارق ذهني. ومع ذلك لم أتصور أبداً أنني سأموت. وكنت أقف إلى جواره وأسمع دوي الرصاص وأراه يسقط إلى جواري وأنا إلى جواره أسقط، ومع كل ذلك ظل عقلي عاجزاً عن الإدراك مؤمناً أنه باق إلى الأبد، وأنا أيضاً باق، لا أتصور نفسي ميتاً في يوم من الأيام. وإذا تصورت نفسي ميتاً فإن الصورة تتلاشى على الفور حين أسمعهم ينادونني وأرى اسمي محفوراً كل يوم بالخط العريض، فأتصور نفسي خالداً إلى الأبد وأحاول أن أرى نفسي ميتاً دون جدوى. وإذا رأيت نفسي ميتاً فأنا لا أستطيع أن أراه هو ميتاً. وصورته تطل عليّ من كل مكان فوق الأرض وفي السماء وفوق الأقواس وفي الصفحة الأولى كل صباح وكل مساء. واسمه على كل لسان وصورته في الآذان وكلمته تحدد الصواب والخطأ والفضيلة والرذيلة والشرف والعيب. وصوته في أذني وهو واقف على المنصة يخطب وصواريخ العيد تطرق. ينطق الكلمات بطيبة مسطورة وبعد كل كلمة يتهدّه الناس تهتف. وأنا واقف أسمع الهاتف والتهدّه وعقلي أيضاً واقف، وذهني غائب في الماضي حين كان يجلس إلى جواري في المدرسة، وكلما سأله المدرس سؤالاً فتح فمه عن آخره وبدأ يتهدّه، وتلاميذ الفصل يضحكون، وفي الفناء يسرون خلفه يشدون يده من فوق الثقب في السروال. وفي الامتحان يجلس إلى جواري ومن تحت المعد يهمس في أذني: فاهم حاجة يا وله؟ ولا أدرى يا أمي كيف دارت الأيام وأصبح هو الإمام وأنا كاتب صغير مجهول. لكن أواخر التلاميذ كانوا يدخلون الجيش والبوليس، ومنهم يخرج الزعماء والرؤساء ولم يكن للواحد منهم ما يزهو به عند التخرج إلا البدلة الرسمية ونجمة فوق الكتف. وكنت أنا قد دخلت كلية الحقوق وأبي يناديوني بالوزير، وأهمس

في أذنك أنتي لا أحب القانون ولا العدالة ولا أحب أبي، وتشهقين في وجهي بذلك الصوت الغريب يذكرني بأول شهقة لك وأنا واقف عار أمام المرأة. وفي المرأة ذاتها رأيت أبي عاريًا بين ذراعي امرأة ليست أنت. ولحنني أبي وأنا واقف وراء الستار فنهض وشدني من أذني وقدفني في سريري وهو يصيح: أتخسي وأنت نائم؟ وفي الصباح حين جلسنا إلى مائدة الفطور وقدمت لي كوب الحليب فلم أشربه ضربني وهو يقول: إشرب اللبن. ولم أشرب. فأمسك فمي وفتحه بالقوة وسكب اللبن في حلقي. وما أن جلس يأكل حتى تقيأت اللبن في صحنه. وسألتني ماذا حدث وكنت أحب حليب الصبح وسمعته يقول: إنه مريض يمشي وهو نائم. وأرقدني في السرير وسكب الدواء في فمي بالقوة له مرارة السم. وقلت أبي ي يريد موتي حتى لا أقول ما رأيت. وقلت ماذا رأيت؟ ولحقت الموت في عينيه فتجدد لسانه ولم ينطق. وحملت الثقل في قلبي يزداد يوماً وراء يوم وأراك تغسلين ملابسه تدعكين البقعة الصفراء في سرواله دون جدوى. وتظل البقعة تحت عينيك وفي أنفك تشمين رائحة المرأة الأخرى وتغسلين وتطبخين وحتى يعود آخر الليل تنتظرين. وفي عينيك حين انظر إليك أدرك أنك تعرفين. ترين الخطأ في الكون وتصمتن. لو أنك نطقت مرة. لو أنك رفضت أن تغسلي سرواله الملوث بعرق امرأة أخرى. لو أنك ذهبت إلى رجل آخر، ربما أصبح الخطأ في الكون أقل. ربما نما لدى منذ الطفولة إحساس بالعدالة. ربما دخل قلبي الإيمان بالله. فالله في طفولتي كان هو العدل. وتمنيت أن أراك بين ذراعي رجل آخر غير أبي. لو فعلت ذلك مرة ربما اعتدل ميزان العدالة في الكون. وكنت أسمع مدرس الدين يقرأ كلام الله ويقول العين بالعين والسن بالسن والخيانة بالخيانة والوفاء بالوفاء. وظلمت خيانة أبي محفورة في الكون بلا خيانة منك تمسحها. وتزداد الخطيئة حين أراك في وجهه تبتسمين. وأتلفت حولي باحثاً عن وجه العدل دون جدوى. وإلى جواري أراه

جالساً في الفصل مطرقاً رأسه واضعاً يده على سرواله من الخلف. وإذا سأله المدرس سؤالاً تلقت حوله مت習راً وبدأ يتنهى. وحين يضحك التلاميذ يقول لو كانت هناك عدالة في الكون لما خلقني الله أتهه وجميعهم لا يتنهون. وهمس في أذني بصوت خافت: الله غير موجود لأن العدالة غير موجودة. وهمس في أذنه بدوري: لو كان الله موجوداً لما كان الوفاء يقابلها الخيانة، والخيانة يقابلها الوفاء. وكُنت يا أمي تلميذاً في التاسعة من عمري وهو زميلي وربط بيني وبينه الإيمان العميق بعدم وجود الله. وظلت قدرتي على الإيمان بالله مرتبطة بقدرتك على خيانة أبي. ولم يكف أبي عن خيانتك ولم تكتفي عن الوفاء له. وقلت لك مراراً إنه خائن. لكنك يا أمي لم تسمعي. وإذا سمعت تصمتين ولا تردين. ولم أعرف لماذا تقابلين الخيانة بالوفاء، ثم عرفت أنك كنت تخافين. وكل ليلة تبكين وفي النوم تحلمين أنك قابلت رجلاً آخر، لكنك في الصباح تتراءجين. كنت تخافين الناس وتخافين أباك، وأكثر ما كنت تخافين هو الله. وقلت لك يا أمي العين بالعين والحسنة بالحسنة والسيئة بالسيئة لكنك أبداً لم تسمعي. وإذا سمعت لا تدركين. وإذا أدركت لا تفعلين. يمر اليوم وراء اليوم وتستسلمين. لو أنك قاومت الظلم مرة. لو أنك دافعت عن حقك. ربما عرفت أنا العدالة وإذا عرفت العدالة عرفت الله. لكنك يا أمي عجزت عن الدفاع عن حقك. وإذا عجزت عن الدفاع عن نفسك فهل تدافعين عن الآخرين؟ فاقد الشيء لا يعطيه يا أمي. وعجزت عن الدفاع عن حقي. ترين أبي وهو يظلمني فتسكتين وفي كل صراع بيني وبينه تقفين تتفرجين. وإذا اشتد الصراع تنحازين إليه وعنك تدافعين. هو على صواب دائماً وأنت عن الحق لا تدافعين. لو أنك قلت مرة أنه أخطأ. لو أنك حكمت مرة بالعدل. ربما عرفت أنا العدل. ربما عرفت الله. ربما قابلت الوفاء بالوفاء. لكنني أصبحت مثلك يا أمي أقابل الخيانة بالوفاء. وأصبحت مثل أبي أخون من تخلص لي وأخلص لمن

خونني . وهربت من فتاتي الأولى حين أحببتهني وتزوجت أول امرأة رفضتني - وأصبحت كاتباً كبيراً بأمر الإمام لا يرافقني من نساء العالم إلا زوجته، ولا أكتب إلا ما يرافق الإمام . قسمة عادلة يا أمي . هو يملك قلوب الجماهير عن طريقه . وأنا أملك قلب زوجته عن طريقه . وكان يدرك وهو جالس بيننا أن قلبها وعقلها معي . ولم يكن يهمه من المرأة القلب أو العقل ، ويقول لي المرأة الجسد ولا شيء بعد ذلك يهم . ولم أكن أرى منها إلا العينين الزرقاءين . أراهما بالليل والنهار . وحين تنظر إلى زوجتي الجديدة يستحيل سواد عينيها زرقة بلون البحر وأحوطها بذراعي فستتحيل سمرة جسدها نعومة بيضاء ، وتلتقط زوجتي اسمها وأنا أهمس به لحظة النشوة وتسألني : من «كاتي» دي ؟ ويرتج لسانى : مين قال الإسم ده ؟ وتقول أنت قلته لحظة الغيبة أهي فتاتك الأولى ؟ وأمسك لسانى قبل أن أقول إنها فتاتي الأخيرة . ولم تكن فتاتي الأولى اسمها كاتي ولم أعد أذكر اسمها ولا شكلها ، وكل ما ذكره أن وجهها كان نحيلأً شاحباً وبشرتها سمراء فيها بقع بيضاء ولهجتها ريفية . وحين تشعر جلبابها وتنشى لتمسح البلاط يصعد الدم إلى رأسى ثم يهبط ساخناً أسفل بطني متجمعاً أعلى الفخذين في غدة الشيطان . وتغلقين عليها باب المطبخ بالفتح ، فأسرق المفتاح من جيبك وأنت نائمة . وحين ارتفع بطنها بالحمل السفاح أمسكت العصا الخيزران وعلى قدميها الحافيتين تضربين . واعترفت لك أنه أبي فزال عنى الخوف . وكنت أراه وهو يسرق منك المفتاح . ولم أقل لك شيئاً وإذا قلت فأنت لا تسمعين . وإذا سمعت فأنت تصمتين . وأصبحت أصمت مثلث وأخاف أن أنهض من النوم فأراه مع المرأة الأخرى . وأحبس البول حتى الصباح أو أتركه ينساب كالخيط الناعم الدافئ . ويقول أبي إنني مريض أبوال في الفراش وأمشي وأنا نائم . وأقول إنني رأيته مع المرأة الأخرى وأراك ترتعدين ولا تصدقين . وإذا ضربني وقفـت معه وعن الحق لا تدافعين . لو أنك وقفت مع الحق مرة ربما فعلـت مثلـك ، لكن أبداً لم

تفعيلاً . و فعل بي أبي ما شاء فأصبحت مثله وما يفعله أفعله ومن جيبيك أسرق المفتاح . و حين يراني يصمت و حين أراه أصمت . وفي يوم العيد رأينا صورتها في الصحف منشورة بوجهها الشاحب و عينها السوداوان و ذراعاها مفتوحتان نحو السماء في ابتهال صامت و ركباتها مفتوحتان . وفي نقطة الوسط تتلقى الحجر وراء الحجر يرجمونها فوق علامه الشيطان . و طبول العيد تدق و صواريخ النصر تفرقع ، وفي حلقي مرارة الهزيمة وهي تنظر إلى سواد العين يحرق الجريدة كالنار السوداء .

وفي الصف الأول أقف تحت الأضواء لا يفصلني عن العرش إلا رئيس الأمن ومن بعده الإمام . وفي أذني يدوي الهاتف «الله معك» ، وهو يتنهه بخطبة العيد وأنا واقف إلى جواره صامت وعقلني غائب والهاتف يختلط في أذني بدوي الرصاص ووجهه يسقط من فوق جسده المشوق تحت الشمس ووجهه يسقط هو الآخر إلى جوار وجهه . وينظر إليّ ويسألني وهو يتنهه من تحت المهد كما كان يفعل ونحن في المدرسة : فاهم حاجة يا وله؟ وكنت أقول له الإجابة عن كل سؤال في الامتحان ، لكنني هذه المرة لم أعرف الإجابة ولم أرد ، وبقيت راقداً إلى جواره ووجهه أخفيه في الأرض وظلمة كالليل تجيء محملة بثقل الموت . وجدران جسدي كالصخر تحوطني وأنا راقد وصوت الرصاص في أذني مددود كالهاتف . وأنادي عليك يا أمي كما كنت أنا نادي وأنا طفل وتأتي إليّ في الظلمة كالضوء ، وينحنني جسدك نحوه وأرى وجهك أمامي وأكتشف أنني لم أرك منذ عشرين عاماً . وأنحني عند عينيك الصغيرتين أمسح عنهما الأرق وأناديك فلا تردين . ومن نافذة بعيدة تطل على الكون الصامت أقول كنت هنا وأنا طفل وقلبي كان بحجم الشمس وكنت أحبك كما أحب حليب الصبح . لكنني فتحت عيني في الليل ورأيت أبي عارياً كالشيطان ، وعاقبني الله لأنني فتحت عيني وكان يجب أن

أغمضهما وأظل نائماً. ولم أعد أحب حليب الصبح ولا ضوء الشمس،
وأصبح الإمام رفيقي وآمنت بوجود الله وأهتف مع الناس الله والوطن
والإمام.

الإمام متنكراً

لا زال الصوت يدوي والناس تهتف وأنا واقف فوق المنصة ألقى خطبة النصر ويرن صوتي في أذني فأدرك أنه ليس صوتي وإنما هو صوت الرجل الآخر يقاسمي شخص الإمام. وأرى وجهه عالياً في السماء معلقاً فوق أقواس النصر تحت كشافات الضوء يشد عضلات وجهه المتقلص ليتسم بضم واسع يسع حب الله وعيشه فوق الأرض. وأحمد الله أنني أرقد في مكان بعيداً عن الضوء وعيون الناس. وأحرك ذراعي بحرية وقلبي مملوء بالسعادة. فأنا في نظر الشعب والدولة والقوى العظمى لا زلت واقفاً أخطب في عيد النصر ومن حولي أعونى من حزب الله وزوجتي الجديدة وكاتبي الكبير ومعارضي الشرعي وأعونه من حزب الشيطان. وأنا في الوقت نفسه راقد مستريح البال لا أحمل هموم الدولة أو الديون أو الهزيمة أو الإشعاع النووي. ويمكنتني أن أرقد هكذا فوق ظهري أو بطني أو أخلع ملابسي الرسمية وأرتدي ملابس رجل عادي من الشعب وأسير وحدي دون حاجة إلى حماية رئيس الأمن وأعونه من أرواح الجن والإشaitين. أكتسى الهويني، لا أسرع الخطى دون حاجة إلى إيهام العالم أن وقتى ثمين. وأستنشق الهواء بملء صدرى وأترك عضلات وجهي مرتخية مستريحية دون حاجة إلى تكشيرة لائقة بهيبة العرش وحزم الإمام أو ابتسامة تتسع لحب الله والوطن والشعب. أحرك ذراعي في

الهواء وأنا أسير متنكراً متخففاً من ثقل النياشين والأوسمة وقميص الوقاية الملفوف حول صدرني وبطني كحزام العفة الحديدي. ولا أحد من العالم يعرفني أو يستوقفني راكعاً يطلب البركة أو علاوة أو توصية. أحرك ساقئي في الهواء داخل سروال قديم من الدمور مثقوب من الخلف وأتمشى غير مكتثر بشيء، فلا أحد يعرفني ولا أخاف أن يعرفني أحد، وعضلات وجهي مرتحية غير مشدودة بلا هيبة أو شجاعة أو خوف أو ضعف أو قوة. وإنما هي الراحة الكاملة وسعادة الآلهة والثقة والاطمئنان إلى أن العالم يسير بدني، ومع ذلك فأنا موجود وصوتي تنقله الإذاعات والأقمار الصناعية إلى جميع أنحاء العالم وأيضاً إلى العالم الآخر. وصورتي في كل مكان ترفرف إلى جوارها الأعلام، والهتاف يصل إلى من بعيد وأنا أسير الهويني، أستمتع بمنصب الإمام دون أن أكون الإمام وأسمع الهتاف دون أن يؤلم الدوي أذني.

على بعد غير قليل لمح شبحاً يتحرك على شاطئ النهر. ظنه أحد أعضاء حزب الشيطان وقد تعرف عليه وسوف يغتاله. كان يخاف أن يتعرف عليه أحد وهو متنكر. وكان يخاف أكثر أن يتعرف عليه أحد وهو غير متنكر. واختباً وراء شجرة يلهمث. عيناه مذعورتان تراقبان الشبح. دفق النظر. بدا له من بعيد كأنه صخرة بارزة في الأرض لا تتحرك. دفق النظر أكثر ورأى أنها تتحرك. بدت حركتها أول الأمر كصخرة تتدحرج وحدها. دفق النظر أكثر. رأى لها أربعة قوائم. ظن أنها جاموسية تتمشى على النهر. لكن رأسها لم يكن به قرون. وإنما شعر ملفوف تحت عمامة بيضاء. ظنه شيخ عجوز يسجد على يديه وركبته في خشوع للإمام. خرج من وراء الشجرة مطمئناً إلى أنه أحد أعضاء حزب الله. واقترب منه أكثر فرأى أنه امرأة وليس رجلاً. عرفها من وجهها الطويل التحيل وعينيها السوداين الواسعتين وجلبابها الأسود الطويل وشعرها الملفوف داخل المنديل وفي يدها الفأس. كانت تفتحت الأرض. ولم تكن رأته بعد. وحلا

له أن يراقبها دون أن تراه. ورآها تهد الأرض بكتفها الكبيرة. أبعدت قطع الطوب والخضرة. فرشت الأرض بتراب ناعم. انتزعت من صدرها شيئاً صغيراً وضعته في بطن الأرض. عمقت له مكاناً ثم ساوت الأرض وغطتها بتراب ناعم. قال لنفسه واحدة من عبيد الأرض مات زوجها في الحرب أو في الوباء. اقترب منها وحياتها وأثنى على جهدها وسألها عما زرعت فقالت شجرة بندق. وكان يعرف أن شجرة البندق لا تطرح إلا بعد مائة عام. وقال أتمنى لك العمر الطويل والصحة والعافية، لكن أتوقعين أن تذوقي ثمار ما زرعت؟ وأدركت المرأة دون أن ترفع عينيها إليه أنه الإمام وقالت: لن أعيش حتى أشهدها وهي تنمو. وقال: إذن لماذا تزرعين وفيم تبذلين من جهد؟ قالت: أنا أواصل الجهد ولم أبدأ الزرع وأمي هي التي بدأت ولو لا أنها فعلت ما كنت أنا أعيش. وكاد يقول أنا الذي منحتك الحياة وليس أمك، لكنه كان متذمراً ولا يريد لها أن تتعرف عليه. وكبح جماح الرغبة في أن يكشف عن سطوه وقال لنفسه الأفضل أن أجمع عنها المعلومات وأعرف هل هي في حزب الله أم في حزب الشيطان. ثم أتركها لرئيس الأمن. ورسم على وجهه ابتسامة وقال برقة فائقة وكأنه يداعب طفلة: أنت في حزب الله أم في حزب الشيطان؟ وظلت صامتة لا ترد ولا ترفع عينيها إلى وجهه، وتصور أنها في حزب الله وتخشى أن تعرف له متصورة أنه الشيطان أو واحد من أرواح الجنان. وسكتت طويلاً حتى ظن أنها تخابث وقد تورطت في الكشف عن نفسها، وأنه سيعرف عنها ما لا تريد أن تبوح به. ودقق النظر إليها ولم ير في ملامحها خبأً والبراءة مرسومة على وجهها كالطفلة. وكلما رأى البراءة مرسومة على وجهها ازداد يقيناً أنها غير بريئة وأنها بنت حرام تتظاهر بالبراءة، وظل يداعبها ويناولها غصن شجرة، وقال: خذني وقتك يا شاطرة ولا تخافي. إذا كنت في حزب الشيطان فهو حزب بأمر الإمام مثله حزب الله سيان، ولا تظنني أبني أجمع عنك المعلومات لأضررك والعياذ بالله، وإنما لأكافئك

على جهد تبذليه دون مقابل، وهذا بالضبط هو إنكار الذات وفق تعاليم الله والوطن والإمام. وظلت المرأة صامتة وعلى وجهها البراءة تتضاعف والفرح في قلبها يتضاعف ورفعت رأسها إليه ولم تكن رأته من قبل. رأت رجالاً غريباً رأسه بغير شعر ووجهه يغطيه الشعر وحاجبه كثيفان يلتقيان فوق عينيه في زبيبة سوداء وأنفه مقوس وفمه كبير معوج على ناحية وذقنه مثلثة في وسطها حفرة كالثقب يتدلّى منه الشعر. وقالت لنفسها: يشبه وجه الإمام كما رأته في الصورة. وكذبت نفسها، فالإمام لا يمشي في الطرقات كالبشر وليس في سرواله ثقب وظلت صامتة. وسألها لماذا هي صامتة قالت تصورتك الإمام ولست أنت الإمام. واشتد ذكاوه وتذكر سلاح المعلومات وقال لنفسه: الآن يمكنني أن أعرف مدى حبها لي ومدى إيمانها بالله والوطن وهكذا أعرف أغوار قلبها. واشتدت غبطةه وهو يدرك أن التجسس على قلبها أصبح في مقدوره، ولم يكن في مقدور رئيس الأمن ولا القوى العظمى أن تتجسس بعد على أغوار القلب. ومن شدة الغبطة نسي أنه متذكر وتصور أنه الله، فهو قادر وحده على كشف القلوب وكاد يكشف لها عن حقيقته، لكنه خاف أن ينكشف أمره وهو يريد أن يظل متذكرأ حتى يعرفحقيقة شعورها، ومدى الإيمان في قلبها لله والوطن والإمام، وبالغ في تذكره وإخفاء صوته الخشن بصوت آخر ناعم وإظهار الثقب في سرواله من الخلف، وكلما ازداد تذكرأ وإخفاء لحقيقة ازداد يقيناً بأنها ستكتشف عن حقيقتها وأغوار قلبها.

كان لا يزال واقفاً أمامها وأدرك أنه يرتعد وأنه خائف، ولم يعرف لماذا هو خائف، لكنه أدرك من صمتها ومن عينيها الثابتتين في عينيه أنها لا تؤمن بالله والوطن والإمام، وأنها ليست عضواً في حزب الله ولا حزب الشيطان وأنها بنت حرام، وأمها بنت حرام. وقال لنفسه: إذا كانت بنت حرام فلا عجب أن تفعل أية فاحشة وليس لها من علاج إلا الرجم.

الفيلسوف

سحر غامض يجذبني إلى هذا العالم الآخر. هربت إليه كاتي حبيبي القديمة. سمعت عنه الأساطير وحكايات ألف ليلة وليلة. الشبق في العيون والذهب السائل في بطن الأرض. وأنا في غرفتي الباردة بغير تدفئة. أنتقل من قطار إلى قطار تحت الأرض. موظف صغير في شركة صغيرة أطلع لابنة المدير. أحببتها فرفضتني وتزوجت امرأة رفضها غيري. تكبرني عشر سنوات وصدرها أملس بغير أثداء. ردها نحيل ضامر. ورأسها كبير وعقلها ساخن والرحم بارد. تلد الكتاب وراء الكتاب ولا تؤمن إلا بأطفال الأنابيب. قلت لها أعظم امرأة ليست من كتبت أعظم كتاب وإنما من ولدت أعظم رجل. قالت مريم العذراء ولدت ابن الله وأنا فقدت عذرتي في الطفولة ولا أؤمن بال المسيح. قلت وبماذا تؤمنين؟ قالت أؤمن بعملي وبأي شخص يخاطب العقل وليس الرحم. وقلت عوضي على الله والمسيح، ويقيت معها أدفئها في الشتاء وتبردي في الصيف. وفي الصباح أجري في السراديب تحت الأرض. أركب قطارات طويلة ضيقة لأنابيب الأطفال. الناس محشورة كقطع السردين. ويحملني السلم الآلي، أترك له جسدي وأغمض عيني. يلفحني الهواء فوق سطح الأرض. أجري فوق الأسفلت من فوق رأسي مظلة المطر. أدخل إلى مكتبي أنقض الماء عن معطفي وأساوي شعري في

المرأة. لن يدق جرس التليفون بصوت أنتظره. لا رجل ولا امرأة. لم أعد أنتظر أحداً. إلا صوت المدير. هذا التقرير عاجل. هذا الخطاب هام. أين الملف. عشرون نسخة من هذه الورقة. اطلب هذا الرقم. إاحجز لي في هذه الطائرة. اكتب هذه المذكرة. أصحابي تتحرك وحدها فوق الأزرار. دقات متكررة كدقائق الساعة. لا جديد. لا حب. لا صدقة. لا وقود. لاأمل. واليأس أيضاً راح.

قلبي جداره ثلج أبيض. كوب القهوة بارد في يدي. جدران غرفتي داكنة. لون رمادي قاتم تشوّبه زرقة باهته. منذ عشرين عاماً لم أجدد الطلاء. ادخلت مبلغاً من المال. نويت تجديد الطلاء في عيد الكريسماس. جاء العيد وذهب ولم أجدد الطلاء. أرسلوا الصواريخ في الليل. لن تُبقي الحرب النووية على جدار فما بال الطلاء. جداري خال من الصور. لا أب ولا أم. صورة أبي في خيالي كما وصفته لي جدتي يرتدي الزي العسكري. بعد انتهاء الحرب الأولى حملني واختفى في جوف البحر. رست السفينة عند جبل الثلج. تركني مع أمه وسافر إلى حرب أخرى. مات دون أن يحكى لي قصة ولادتي وجدتي لم تعرف شيئاً. وإذا سألتها تقول كنت طفلاً وسيماً داخل الأنبوة. وفي أحلامي أصبح في الأنبوة باحثاً عن أمي يبتلعني حوت ضخم وأصحو من النوم مبللاً بالعرق.

أطراف أصحابه مثلجة حول الكوب. قهوة سوداء بغير لبن. يبتلعها كل صباح على معدة خاوية. شهيته للطعام راحت وشهيته للحب راحت وشهيته للقراءة. لم يعد يقرأ إلا عنوان الصفحة الأولى في جريدة الصباح. يتظاهر خبراً واحداً من ثلاثة كلمات: إعلان الحرب النووية.

الساعة التاسعة إلا خمس دقائق. لم أعد قادراً على النهوّض ولماذا أنهض. ليس خارج غرفتي إلا الشارع الأسفلت والمطر. وسراديب

الأمر. وفطارات كانابيب الأجهزة الصناعية. والسلم الآلي يستسلم له جسمهني. والأررار أدق عليها بأصابعه وصوت المدير. تقرير عاجل. خطاب سري. اكتب هذا. لا هذا الملف. مقعد في الطائرة الدرجة الأولى بدون ندخن. هو يدخن لكنه لا يحب رائحة دخان الآخرين. دعاني مرة على العشاء. قال إنه معجب بذكائي وعيناه على امتداد ساعة العشاء تمتد إلى جسدي. بعد العشاء حوطني بذراعيه. أبعدت وجهي عن أنفاس دخانه. قلت أشكرك على الحب، لكنني أحب شخصاً آخر. سألني امرأة أم رجل؟ قلت ليس من حفك أن تعرف شيئاً عن حياتي الخاصة. وماذا يهمك من أحب إذا كنت لا أحبك أنت. ولم أكن أحب أحداً. لا امرأة ولا رجل. تحررت من الحاجة إلى الحب تحررت من الانتظار. والوعود دون تحقق. لم يعد جسمي ملكاً لأحد. ولا أريد أن أمتلك أحداً. لا زلت أحتاج إلى مبلغ من المال كل شهر. أسدّد إيجار الغرفة وأشتري القهوة والخبز. إذا فقدت وظيفتي فلن يكون لي مورد آخر. وحين حوطني بذراعيه في اليوم التالي همست في أذنه بالحب. وسألني هل أنت بخير، وجهك غير الأمس. وتذكرت أنني مريض وفي حلقي مرارة القهوة السوداء. قال هل ذهبت إلى طبيب نفسي. قلت: لا. قال إذهب بهذه أعراض الكتاب.

سألني الطبيب النفسي عن حياتي. حكت له كل شيء. قال علاجك السفر فأنت في حاجة إلى دفء الحب والشمس وجريان المال بين أصابعك. وأعددت الحقيقة وقلت لزوجتي سأسافر. قالت إلى أين؟ قلت إلى العالم الآخر. قالت أي عالم آخر؟ وأشارت بطرف أصبعي إلى الخريطة. ارتدت نظارتها السميكة كقعر الزجاجة، وقالت: وراء البحار هناك؟ قلت سأعود إليك محلاً بالجواهر. قبلتها فوق فمهما الحالى من الشفتين وانطلقت بدونها إلى حبي القديم وحياتي الجديدة. قلبي يخفق

لرنين الذهب وفي المرأة أرى نفسي الملك شهريار. أغتصب كل ليلاته
عذراء وقبل الفجر أقتلها قبل أن تقتلني.



من الجو لمعت الأرض تحت الشمس كبحر من الذهب وهضبة
خضراء بين النهر والبحر. هبطت الطائرة بعد الغروب وملأت أنفي
رائحة عتيقة. عرق وشحم وجاز محترق. دخان في الجو والوجوه
رمادية. لغة الكلام لا أفهمها وعيون خالية من الشبق، كتل مربعة من
اللحم داخل عباءات سوداء. أطفال وجههم كالعجائز وعيونهم يأكلها
الذباب. رجال يرتدون الجلاليب هجموا عليّ وأنا خارج من المطار.
يتنافسون على حمل الحقيبة وكل منهم يشد ذراعي. دفعني أحدهم داخل
التاكسي واندفعت حقيبتي من ورائي. انطلقت السيارة في الظلمة وأبواب
كثيرة تزعق. أصوات تدوّي كالصواريخ أو مدافع الحرب. توقفت
السيارة عند الإشارة الحمراء وهجم أطفال يمسحون الزجاج بالفوتو^ر
الصفراء. مدوا أياديهم السمراء المشققة تحت وجهي. طردتهم السائق
بصوت غليظ. وصلت إلى الفندق مهدود الروح. قلت هل سأل عنني
أحد؟ قالوا لا. قلت أنتظر موعداً مع الإمام. قالوا إنها ليلة العيد والإمام
ينخطب والعالم كله في إجازة. قلت وماذا أفعل حتى تنتهي الإجازة. قالوا
لا شيء فالأماكن كلها مغلقة. قلت ألا يمكن أن أرى شيئاً هذه الأيام.
قالوا يمكنك أن ترى العذراء فقد ظهرت في الكنيسة القديمة قرب الجامع
الجديد وكل الناس هناك. وقبل أن أقرر شيئاً دفعني أحدهم داخل
التاكسي ووجدتني أسير نحو الكنيسة وأنا أرسم فوق صدرني الصليب.
الأب والابن والروح القدس. لا أكاد أصدق عيني. أجساد البشر كيوم
الحشر تجتمعوا من كل الأنهاء. رجال ونساء وأطفال. جالسون على
الأرض أو الكراسي القش.

جلاليب الريف وبدل الأفنديّة. نساء محجبات ونساء نصف عاريّات. وجوه شاحبة مريضّة ووجوه متوردة تفيض حيّة. عيونهم مرفوعة نحو قبة الكنيسة. ينتظرون ظهور العذراء. قرأوا في الصحف خبر ظهورها. كل من فاته رؤيتها العام الماضي جاء. والأجانب أيضاً جاؤوا يشهدون المعجزة وإلى جوار كل منهم كلب أسود. عينا الكلب مرفوعتان نحو القبة مليئتان بالخشوع. همس رجل في أذن جاره: أيدخل الإيمان قلوب الكلاب؟ رد الرجل ولم لا؟ قال الجار: إذا عرفت الكلاب الوفاء فلماذا لا تعرف الإيمان! وهذا الكلب من أجود الأنواع مستورد من وراء البحار كشف الله عنه الحجاب ويعرف المذنب من البريء، يأكل كبد الحوت ويبتسم في الصورة. ويقول الرجل الأول: لم نر في بلادنا كلباً يبتسم. ويقول الرجل الثاني: بلادهم غير بلادنا وكلابهم غير كلابنا. قوى عظمى كفانا الله شرها يرسلون إلينا الموت في علب الأكل وصواريخ تدك المدن تحت الأرض وطائرات تسافر إلى القمر. يندesh الرجل. القمر؟ عيناه تتعلقان بالقمر. لا زال القمر معلقاً في السماء بدون أعمدة في الأرض. لا زال الله أقوى من القوى العظمى. الله فوق الجميع. أعندهم رجال سافروا إلى القمر؟ أي والله وامرأة أيضاً سافرت إلى القمر. تزداد دهشة الرجل. امرأة؟ ويقول الرجل الثاني: أي والله امرأة. ولا يصدق الرجل الأول. امرأة؟ وما شكلها؟ وهل لها ثديان مثل النساء عندنا؟ مثل زوجتي وزوجتك؟ وهل سافرت وحدها بدون رجل معها؟ بدون محرم؟ ويقول الرجل الثاني: وحدها تماماً سافرت بدون محرم وبدون حجاب. فالقمر ليس فيه رجال فلماذا تتحجب؟ لا يوجد على سطح القمر رجال أو هناك رجال من نوع آخر لا تشيرهم مفاتن الحريم. تزداد دهشة الرجل: إذا لم تشرهم مفاتن الحريم فماذا يثيرهم؟ ويقول الرجل الثاني: الله أعلم بما يثيرهم يا أخي وقد انتصف الليل ولم تظهر العذراء. لماذا تأخرت في الظهور؟ غيرت رأيها وظهرت

في بلاد أخرى. لم تكن تختار من بلاد العالم إلا بلادنا. وإذا لم تظهر عندها فأين تظهر؟ نحن لا نؤمن بابنها المسيح وقد تظهر في بلاد أخرى. لكنها ظهرت بالأمس وهي لا تفرق بين المؤمنين بال المسيح أو المؤمنين بمحمد. فهي لا تشجع الفتنة الطائفية. وفي الصحف قرأتنا خبر ظهورها ورأينا صورتها منشورة فوق قبة الكنيسة. ألم تقرأ الصحف؟ لا فأننا لا نعرف القراءة. لكن أليست العذراء مريم روحًا غير جسد؟ نعم إنها روح طاهرة. وهل تنشر الصحف صورة الأرواح؟ ولم لا يا أخي؟ إنها صحف الإمام وهي قادرة على كل شيء.

وصرخت طفلاً مسلولة تحملها أمها وانتفضت واقفة على قدميها. وهب الجميع واقفين مهليين مكثرين باسم الله والعذراء. ووقف الرجالان مع الواقفين وكبراً مع المكثرين. وهمس الرجل الأول في أذن الثاني: هل ظهرت العذراء؟ وصاح الثاني: طبعاً ألا تراها؟ انظر! ونظر حيث ينظر الناس فوق قبة الكنيسة. وحين لم ير شيئاً ارتج جسده متصوراً أنه أعمى. طرد الشك وحملق في الظلمة وصاح مع الناس: رأيتها رأيتها.

هز الإمام رأسه علامه الإعجاب، وقال مشروع عظيم يحول جبل الرمل إلى جنة عدن. منحني لقب الخبر وميناء يطل على البحر ولم يكن أمامي إلا التوقيع باسمي فوق العقد. قالوا ما اسمك؟ قلت «جوزيف» قالوا في الأصل كان «يوسف» وعليك تغيير الاسم. قلت ليكن اسمي «يوسف» وعوضي على الله والمسيح. قالوا أتؤمن بال المسيح وليس الرسول محمد؟ قلت يمكنني ترك المسيح من أجل المشروع. قالوا ما اسم أمك؟ قلت لا أعرف وأنا من أطفال الأنابيب. قالوا ما هي الأنابيب؟ قلت إنها الأرحام الجديدة تتوج الأطفال الأربعاء من الإناث وغير جنس ولا نكاح ولا جماع، اللهم إلا التلقیح الصناعي. قالوا أعوذ بالله من الشيطان. هذا حرم بأمر الإمام، فهو الزنا والفاحشة وخلط الأنساب. قلت وما ذنبي

وكنت جنيناً في بطن أنبوبة لا أعرف شيئاً عن الزنا والفاحشة. قالوا عليك بالتطهير من الإثم وإعلان التوحيد والإيمان بالله والرسول. قلت آمنت بالله والرسول من أجل المشروع. لكن ما هو التطهير؟ قالوا قطع جزء من الجلد فوق رأس العضو. قلت كل شيء ممكן إلا قطع جزء من جسمي. قالوا لا بد من التطهير إذا أردت بركة الله ونجاح المشروع. قلت ليكن التطهير وقطعة من الجلد لا تساوي شيئاً إذا جاء الذهب.

وجاء الخلاق يحمل الحقيقة، وحدث التطهير بالقطع بالشرط دون مخدر إلا زجاجة خمر. وأقبل أطفال كثيرون يرغبون التطهير ووجدت نفسي الكبير الوحيد المختون بين الأطفال. وأخفيت وجهي في الأرض وأعلنت إيماني في الصحف وأطلقوا علىّ اسم الخبير المؤمن. وكل صباح أرى صوري داخل برواز ورأيي منشور كأنه دستور، ولكل سؤال جواب ولكل مشكلة حل واحل الناجع الوحيد هو العودة إلى حظيرة الدين والإيمان بالله والرسول. قالوا والإشعاع النووي ما علاجه؟ قلت الصلاة وصوم رمضان. قالوا ومشكلة الغلاء والجوع؟ قلت قطع يد السارق وتحجيف النساء. ومنعني الإمام لقب الفيلسوف وضاعف الله لي الربح. وفي نهاية العقد حملت حقائب الذهب وهربت بالطائرة دون دفع الجمارك ومعي كاتي حبيبي القديمة.

الحب القديم

من شرفة الحرير الوردية بلون الشمس أطل على الهضبة بين البحر والنهر اتسعت مساحتها وامتدت إلى المحيط. ومن خلف النهر أرى الجامع الكبير في المنخفض حيث كان بيت الأطفال ومن خلفه المسرح العائم وكان بيت السعادة وراء الخراة في الخندق. وبينهما المستشفى الحربي في الطريق إلى الجبهة وشرفاته الزجاجية تلمع تحت الضوء ومن خلفها أطباء الجيش يضحكون ويصفرون للبنات في بيت المرضات، وفوق رؤوسهم القبعات العسكرية، وفي أيديهم بنادق أطفال يصطادون العصافير من فوق الشجر. وفي جيوبهم «بمب» العيد. يمسك الواحد منهم بمبة ينفخها في يده ويضربها في الأرض تنفجر مفرقة في الجو ويدوي الهاتف وصواريخ العيد. وصوت الإمام يلقي خطبة النصر. وأنا واقفة في شرفة الحرير تحوطني باقات الورد وتلميذات المدارس كالملائكة البيضاء يرقصن. ونساء الجمعيات الخيرية واقفات كالغربان السوداء يصفقن. والأمهات المثاليات وشهداء الحرب والشهيدات الصف وراء الصف. وهو واقف فوق المنصة يتتههه وعيناه نحو الله. والهتاف يدوي كطلقات الرصاص ووجهه المطاط يسقط بين قدميه يخفيه في الأرض. وأنا أخفّي وجهي أدعوا الله والرسول أن تبتلعني الأرض. وأدعوا المسيح وأمه العذراء أن أصبح الروح القدس أحلق في الجو بغير جسد تراه

العيون. وأعود إلى أمي أختفي في الرحم. وأصعد السلم القديم جريأة وأمي عند الباب تنتظرني. تتلقاني ذراعاه الممدودتان وتقول تأخرت أين كنت؟ وأقول كنت عند الرجل الغريب. تقول ولماذا يا ابنتي تعطي حياتك للغريب؟ وأقول معه العرش والخدم والجواري وأنا تعبت من غسل الصحون والابتسام في وجوه لا تبتسم والاعتراف بأب لا يعترف. وتقول غسل الصحون يا ابتي أخف من غسل الجسد بعد الموت واعتراف الأم أفضل من اعتراف الأب. وأنركها لأجري في الطريق القديم في نهايته البيت الصغير بجوار الكنيسة أدق الباب. وقلبي يدق الدقة وراء الدقة. وينفتح الباب عن وجه المسيح أعرفه لا أخطئه وهو يعرفني لا يخطئني. تتلقاني ذراعاه ويقول تأخرت أين كنت؟ وأقول كنت عند زوجي الإمام. ويقول أتخويني مع زوجك يا «كاتي»؟ وأقول ليست خيانة يا «جوزيف» فأنا أحبك أكثر وأنا معه وحين أعانقه أغمض عيني وأراك أنت بين ذراعي. ويقول أنت حبي الوحيد ومن بعده لم أحب إلا الرجال أو نساء بغير أثداء يلدن الكتب. وفي النوم أنسد الحب لكن الحب لا يأتي. وتأتي مكانه غيبوبة تشبه النوم تفتح العقل للنسوان دون إغلاق العين. نوم ثقيل يشبه الموت دون ضياع الذكرة. ولا أنساك ولا أنسى المسيح ولا اسمي ولا جسدي دون الجرح. وأقول أي جرح؟ ولا يقول شيئاً ويعانقني. وأراه في المرأة المستديدة فوق سرير الإمام يعانقني. يصبح داخل المرايا كأنما هو مائة رجل يعانوني في آن واحد. وأعانقه من جديد كأنما أعانق رجال الكون. وأضع يدي على الجرح، ملتهب تحت السروال بعد التطهير وله رائحة الخشب القديم، وأقول كانت لك رائحة الشجر الأخضر. ويقول كان ذلك أيام الحب لكنك تركت الحب من أجل الذهب وجئت وراءك أفعل مثلك. وعانوني داخل المرايا وأنا أمسح عرقتي بالعطر تشممه بأنفه وسألني هل غيرت عطرك؟ قلت إنه العطر القديم لكن جسدي لم يعد له رائحة الطفولة. وأسندت رأسي إلى مسند السرير

ووضعت الوسادة بين رأسي والسرير، وسرت الرائحة في جسدي أغسلها بالعطر دون جدوى لا تذهب عنى رائحة الموت. وقال لي ما عليك أنا أحبك أكثر وأنت فوق العرش ولا تغيري منك شيئاً ولا تخفي التجاعيد والشيخوخة. واهتز الكأس المثلج في يدي وانسكب الخمر فوق السرير وضحكـت كطفلة تسكب كوب اللبن. لكن البقعة فوق الملاءة لونها قاتم لا تضيع بالغسيل ولا التطهير. وجسدي في الفراش ثقيل متـرهـل أرفعه بصعوبة وأمشي لأجلس فوق مقعد العرش. أخفـي جسدي خلف المكتب الضخم وأحتـمـي في الورق والكتب. وأرى اسمـي منقوشاً بالفضـة فوق غلاف لم أفتحـهـ. وزوجـي اسمـهـ منقوشاً بالذهب فوق كتاب لم يكتـبهـ. ويدخل الإمام تفوحـهـ منه رائحة الخمر وعرق المرأة الأخرىـ. ولا أقول شيئاً فأنا لست المرأة الوحيدة في حياتهـ وهو ليس الرجل الوحيد في حياتـيـ. هربـتـ إليهـ من الفقرـ وهو يهـربـ إلىـ من الفشـلـ والهزـيمةـ، تـسرـيـ في جـوـفيـ مرـارـةـ الحـقـيقـةـ ويـحـوطـنـيـ الإـدـراكـ منـ كلـ جـانـبـ كالـهـوـاءـ السـاخـنـ، وـذـرـاتـ التـرـابـ تـدـخـلـ أنـفـيـ. وـمـقـعـدـ العـرـشـ لـاـ أـعـرـفـ أـينـ ذـهـبـ، وـهـوـ رـاقـدـ إـلـىـ جـوـارـيـ يـدـهـ مـمـدـودـةـ إـلـىـ يـحـاـولـ أـنـ يـمـسـكـنـيـ. وـيـدـيـ مـمـدـودـةـ نـحـوـهـ أـحـاـولـ أـنـ أـعـانـقـهـ. وـالـمـسـافـةـ بـيـنـنـاـ تـسـعـ كـلـمـاـ نـقـتـرـبـ. فـإـذـاـ تـلـامـسـنـاـ وـتـعـانـقـنـاـ أـصـبـحـ أـبـعـدـ مـاـ كـانـ وـأـنـ أـبـعـدـ مـاـ كـنـتـ. وـأـحـوـطـهـ وـيـحـوطـنـيـ دـوـنـ جـدـوـيـ فـالـمـسـافـةـ قـائـمـةـ مـنـذـ أـوـلـ عـنـاقـ. وـفـيـ الفـرـاشـ النـاعـمـ كـنـتـ أـحـبـ الـقـرـاءـةـ قـبـلـ النـومـ. يـزـحـفـ نـحـويـ وـفـيـ يـدـهـ الكـأسـ يـحـدـثـنـيـ عـنـ أـحـدـاثـ الـيـوـمـ. يـقـولـ شـيـئـاًـ وـأـقـولـ شـيـئـاًـ وـيـدـورـ بـيـنـنـاـ حـوارـ لـاـ يـخـلـوـ مـنـ لـذـةـ. وـحـينـ يـحـوطـنـيـ بـذـرـاعـيـهـ تـخـتـفـيـ اللـذـةـ. أـفـضـلـ حـدـيـثـهـ عـلـىـ عـنـاقـهـ كـأـنـمـاـ بـيـنـ جـسـدـهـ وـجـسـدـيـ حـوارـ مـقـطـوعـ أـوـ لـغـةـ غـيـرـ مـفـهـومـةـ. وـفـيـ الـحـدـيـثـ يـفـهـمـنـيـ وـأـفـهـمـهـ، نـتـبـادـلـ الـكـلـامـ وـنـأـخـذـ وـنـعـطـيـ. وـفـيـ الـعـنـاقـ يـخـتـلـ التـعـادـلـ فـهـوـ حـرـكـةـ مـنـ طـرـفـ وـاحـدـ وـهـجـومـ مـبـاغـتـ، وـانـسـحـابـ مـبـاغـتـ كـأـنـمـاـ اللـذـةـ حـرـامـ وـالـشـهـوـةـ عـبـءـ يـحـمـلـهـ فـوـقـ جـسـدـهـ يـوـدـ الـخـلاـصـ مـنـ بـخـبـطـةـ وـاحـدـةـ.

وفي المرأة أراه راقداً في السرير على شكل رجلين أحدهما الإمام والثاني صورة طبق الأصل. وفي بهو القصر أراه سائراً ومعه البودي جارد. وفي الليل حين يعانقني يختلط عليّ الأمر، وأقول هل أنت الإمام أم البودي جارد؟ ويقول أنا الإمام. وأقول إنه يشبهك تماماً ولا أكاد أعرف الأصل من الصورة. ويقول أنا أقوى منه عقلاً وهو أقوى مني جسداً، وكلما تقدم بي العمر يكبر عقلي ويضعف جسمي وأنت شابة في عمر ابنتي وأخشى أن أعود من السفر كما عاد شهريار فأجد في فراشك البودي جارد. وقلت منْ هو شهريار؟ قال ألا تعرفين شهريار؟ لم تقرئي كتاب ألف ليلة وليلة؟ قلت لا. قال أنت إذن لا تعرفين التراث وهذا نقص في الثقافة وعليك بالقراءة. وغادر السرير وسار بخطوات بطيئة نحو المكتبة. وقف طويلاً أمام الكتب يقرأ الحروف فوق الأغلفة بصعوبة. ومن الانحناء الخفيفة في ظهره تأكدت أنه الإمام وليس البودي جارد. وأدركت أنني أعرفه من ظهره أكثر مما أعرفه من وجهه. وأصابني الإدراك بصدمة لا تخلو من لذة. فالإدراك وإن كان قاسياً أفضل من الجهل. وخير لي أن أعرفه من ظهره من ألا أعرفه على الإطلاق. سرت نحوه على أطراف أصابعي وحوّطته بذراعي من الخلف. أحبه من ظهره أكثر مما أحبه من وجهه وأحبه أكثر وهو غائب.

واستدار مبتعداً عن الكتب وفي يده كتاب كبير يحمله بصعوبة إلى السرير. يثبت النظارة فوق أنفه تتسلل منها سلسلة ذهبية. يغمض عينيه حين يقرأ وينام والنظارة فوق أنفه وفمه نصف مفتوح يرتل آية الكرسي يطرد الشياطين وأرواح الجنان. والكتاب بين ذراعيه يحتضنه كالمرأة يعشقها. وفي الظلمة يتسلل من الفراش ويدهب إليها. أراه من حيث لا يراني وهو يعانقها. تصيبني الرؤية بألم لا يخلو من متعة. فالرؤبة رغم قسوتها أفضل من عدم الرؤبة، والاكتشاف كاللذة الآثمة أخلسها وحدي

دون أن يراني. ولا أشعر بالغيرة أو الغضب وإنما هو الإحساس بالذنب. كأنما أنا أخونه أكثر مما يخونني. وأستمتع بعنقه للمرأة الأخرى أكثر من عنقه لي.

إحياء التراث

في الفراش وأنا نائم كنت أعشق قراءة كتب التراث. وأكثر ما كنت أعشق هو كتاب ألف ليلة وليلة. أرتدي نظارة القراءة وأخلع وجه الإمام. وفي المرأة أرى وجهي مستديراً تحت الضوء الأبيض وبشرتي تصبح بيضاء وأسنان بيضاء تلمع كأسنان الملك شهريار. وقلبي أبيض مثل قلبه يعشق الجواري السود. وروحني بريئة مثل روحه لا تعرف أن المرأة يمكن أن تعشق رجلاً غير زوجها. ويرتعد جسدي حين أرى زوجة شهريار في الفراش مع العبد الأسود. وفي أحلامي أرى زوجتي في الفراش مع عبد من عبيدي فأفتح عيني فجأة وأراها نائمة وحدها تحضن الكتاب وعينها مغمضتان. تسري الطمأنينة في جسدي كالدم الدافئ وأتسدلل من الفراش إلى جاريتي السوداء. وفي الطريق إليها أتوقف تحت ظل شجرة كما كان الملك شهريار يتوقف. أستنشق الهواء وأستمتع بالخروج وحدي دون حرس ودون أن يعرفي أحد. كنت أملاً صدري بالهواء حين رأيت مارداً طويلاً يحمل فوق رأسه صندوقاً كبيراً. تصورته عفريتاً من الجان أو أحد أعدائي من حزب الشيطان. تسلقت الشجرة كما كنت أفعل وأنا طفل واحتبت بين الأغصان. رأيت المارد يجلس تحت ظل الشجرة ويفتح أقفال الصندوق القفل وراء القفل، سبعة أقفال. داخل الصندوق رأيت صندوقاً آخر فتحه وأخرج منه امرأة ساحرة الجمال.

وقال لها: يا زوجتي الوفية أريد أن أنام قليلاً. ووضع رأسه على ركبتها ونام. ورأيت الحسناً ترفع رأسها إلى أعلى الشجرة وتهمس بصوت خافت: إنزل ولا تخف من هذا العفريت، فهو من بنى آدم وليس من الجان. ونزلت إليها فرفعت رأس زوجها من فوق ركبتها ووضعته على الأرض وعائقتنى كما تعانق الزوجة زوجها، وحدث لي كل ما يمكن أن يتمناه الرجل الصالح مع حورية الجنة؛ وقبل أن أودعها أخرجت من جيئها كيساً أخرجهت منه عقداً فيه تسعمائة وتسعين خاتماً وقالت أتدري ما هذا؟ قلت لا أدري. قالت أصحاب هذه الخواتم كلهم فعلت معهم على غفلة من زوجي ما فعلته معك فأعطيتني خاتماً أنت الآخر. خلعت من يدي خاتمي وأعطيته لها فقالت إن هذا الرجل اختطفني ليلة فرحي ووضعني في صندوق ورمي على الصندوق سبعة أقال وجعلني في بطن الأرض ولم يعلم أن المرأة منا إذا أرادت أمراً لم يغلبها شيء. ارتعد جسدي وارتج قلبي وانصرفت مسرعاً إلى القصر فوجدت زوجتي في الفراش ومعها عشيقها. رميت عنقها بالسيف كما فعل شهريار بالضبط وصرت إلى زوجاتي القديمات أضرب عنق الواحدة بعد الأخرى. وصرت كل شهر حين يصبح القمر بدراً أتزوج بنتاً بكرأً أزيل بكارتها وأقتلها في ليلتها. وبقيت على هذه الحال عشرين عاماً حتى ضجت الناس وهربت بناتها ولم يبق في الدنيا بنت تتحمل الوطء. وفي ليلة العيد ناديت على رئيس الأمن وقلت له أريد جارية عذراء لا يكون في زمانها أحسن منها. وقرأت عليه الأوصاف الواردة في كتب التراث. قلت أريدها رشيقه القد قاعدة النهد كحيل الطرف رأسها صغير وردفها ثقيل ريقها زهر بستان أتقنت صناعة الحب لم يمسسها رجل وبياضها أربعة: وجهها وفرقها وثغرها وبياض عينيها، وسود أربعة: أهدابها و حاجبها وعيانها وشعرها، وحمرة أربعة: لسانها وخدتها وشفتها مع لعس واشراب بياضها بحمرة، وغلظ أربعة: ساقها ومعصمها وعجيزتها، وسعة أربعة:

جهازها وجسدها وعيناهما وصدرها، وضيق أربعة: فمها ومنخرها ومنفذ أذنيها والمنفذ الآخر وهو المقصود الأعظم من المرأة.

حين سمع رئيس الأمن هذه الأوصاف انسحب الدم من وجهه وأصبح لونه أبيض كوجوه الموتى وأمن بتناسخ الأرواح، وقال هذه هي روح الملك شهريار تركب جسد الإمام أو روح الإمام تركب جسد شهريار. وظل صامتاً يخفي وجهه في الأرض وصوت الإمام يدوي في أذنيه مردداً الأوصاف وعلى أصابعه يعدها وينتهي بضيق أربعة: فمها ومنخرها ومنفذ أذنيها والمنفذ الآخر وهو المقصود الأعظم من المرأة.

ويقول رئيس الأمن لكن هذه الجارية يا سيدي الإمام لا يقل ثمنها عن تسعين ألف دينار وخزانة الدولة خاوية والديون الخارجية... وقاطعه الإمام منادياً على حارس الخزانة. وقال الحارس إن الخزانة عامرة بإذن الله وتساءل عن بند الصرف. وقال الإمام ما هي بنودك الخاوية؟ قال جميع البنود خاوية فيما عدا بند العشق، لكن العشق يا سيدي الإمام مجهول لا يعرف ومعروف لا يجهل، هزله جد وجده هزل والله أعلم. وصاح الإمام منادياً على الكاتب الكبير، وقال له ما هو تعريف العشق في علم التراث؟ قال الكاتب الكبير: العشق تحريك الساكن وتسكين المتحرك ليس بمنكر في الدين ولا بمحظور في الشريعة وهو دواء لكل داء مقام مستلزم علة مشتهاة لا يلذ سليمها البرء لا يتمنى الإفادة يزيّن للرجل ما كان يأنفه يحيّل الطبائع المركبة يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته كامن في الصدور كمون النار في الحجر إن قدحته أوري وإن تركته توارى إن لم يكن طرفاً من العبادة فهو عصارة الإيمان. ورمق الإمام كاتبه الكبير منبهراً باتساع ثقافته وإمامه بالتراث. دخل المعارض الشرعي صامتاً على غير عادته يخفي وجهه في الأرض متظراً دوره لإبداء الرأي الآخر، وجاء عليه الدور آخر الجلسة فقال: العشق يا سيدي الإمام بخار رديء يرتفع إلى الدماغ

عن مني محتقن بعد عشوة دسمة ملوثة بالإشعاع وهو تلبيس إبليس يورث نحافة البدن وانقطاع النفس ونبض القلب غير المنتظم يترك الرجل منا في العالم السفلي وعدواه قاتلة أوله لعب وآخره عطبر، وما بعث الله نبياً إلا وتخوف عليه من فتنة النساء، وإذا قام ذكر الرجل ذهب نصف عقله وقيام الذكر بلية غالبة إذا هاج لا يقاومه عقل ولا دين، وهو حرب يحتاج إلى كرّ وفرّ وإقدام وإدبار، والمرأة تأتي في صورة ملاك وتدبر في صورة شيطان وتسحر الرجل جرواً أو خروفاً يزحف على بطنه ولا يطا الرجل معشوقة إلا وتقول قتلتني. وصاح الإمام منفعلاً: أقتلها وعلى إثمها. وقال المعارض الشرعي: وهل في الخزانة ما يكفي لي ولكل يا سيدنا الإمام؟ وظل حارس الخزانة صامتاً. وقال رئيس الأمن وأنا يا سيدنا الإمام أليس لي نصيب من العشق؟ ولمعت عينا الكاتب الكبير وهو يرمي الجميع. وقال حارس الخزانة بعد صمت طويل: ليس في الخزانة إلا ما يكفي الإمام ورجل واحد آخر يختاره الإمام. وتوقع حارس الخزانة أن يختاره الإمام وقال لا يمر الماء على عطشان. ونظر الإمام متثيراً إلى الأعمدة الأربع، يقوم عليهم حكمه لا يملك إغضاب واحد منهم. وفي يد رئيس الأمن حياته. والخزانة في يد الحارس. والديمقراطية في يد المعارض الشرعي. والتراث في يد الكاتب الكبير. وانتهى الأمر بأن تنازل الأربع عن نصيبهم للإمام فهو يستحق زينة الحياة الدنيا وله من الجواري ما يشاء، وفي الآخرة له سبع وسبعون حورية وليس لأحد أن يتساوى معه في الحقوق، وفيما عدا الإمام فنحن جميعاً أمام القانون سواء، ومن حدث في أمرنا ما ليس فيه فهو بدعة وتلبيس إبليس.

وحمل رئيس الأمن التسعين ألف دينار وخرج إلى السوق يبحث ويوصي السماسرة. وأصدر الأمر بالأً تباع جارية يزيد ثمنها عن تسعين ألف دينار دون أن تعرض عليه للفحص. ولم تكن حركة السوق نشطة

بعد الهزيمة في الحرب وهاجرت الجواري والبنات إلى بلاد الله الواسعة. ودار رئيس الأمن يفتش البيوت وفي يده كشافات الضوء ومن خلفه الحراس وكلاب الصيد. ولم يعثر على عذراء واحدة تنطبق عليها الأوصاف. وكاد يستدير عائداً خاوي الوفاض لو لا أنه لمحها تجري بخطوات سريعة كالغزال ومن خلفها كلبها فانطلق وراءها يجري ومن ورائه الحراس والكلاب. لم يرها إلا من ظهرها وهي تركض رشيقة قد مشوقة الظهر نحيلة الخصر ملفوفة الجسم وانطبقت صورتها من الظهر على المقدس والخيال والتراث. ورفع يديه إلى السماء شكر الله. ولم يكن لها أن تفلت من قضاء الله.



رأها الإمام تدخل عليه وكان لا يزال في الفراش وزوجته الأخيرة تحته وهو ينخر في الجماع، فطلقها وهي تحته محركاً شفتيه هامساً، طالق ثلاثة مرات. وارتدى سرواله الجديد ودخلت إليه مشوقة الظهر مرفوعة الرأس ومن خلفها كلبها مرزوق. ورفع الكلب عينيه إلى وجهه وتذكره على الفور رغم مرور السنين. ولم تكن الكلاب تنسى التاريخ أو التراث.

وراح مرزوق ينبح ويشهد من سرواله بحركة بدت كأنما هي إعادة التاريخ. ولم يكن للكلاب أن تعيد التاريخ فأمسكه رئيس الأمن من عنقه وربط قدميه ويديه بالسلسل. وفي سكون الليل بعد أن نام الهواء أطلق عليه الرصاص دون صوت. وكانت هي قد أصبحت بين ذراعي الإمام وليلة واحدة في عمرها باقية هي ليلة العيد واكتمال البدر. تمددت تحت الضوء الأبيض عارية كما ولدتها أمها. رأت وجه أمها في الضوء شاحباً أبيض، فقالت إما أن أعيش أو أن أكون فداء لبنيات الوطن وسيبدأ خلاصهن من بين يديه.



من ثقب الباب تعجب رئيس الأمن غاية العجب حين رأها ترشه بجوز فيه ماء وقالت أخرج من هذه الصورة إلى صورة خروف. فصار في الحال خروفاً يمأمه طول الليل. وقبل شروق الشمس أمسكت الكوز وتكلمت فيه ورشه بالماء وهي تقول: أخرج من هذه الصورة إلى صورتك الأولى. فعاد إلى صورته القديمة وله وجه الإمام.

وارتعد رئيس الأمن وهو ينظر من ثقب الباب. إنها قادرة على السحر كالنساء في كتب التراث. وتعجب غاية العجب كيف تقدر الجارية على أن تخرج الإمام من صورته الأولى وتجعله من ذوات الأربع ولا يستطيع هو أن يغيّر من صورتها شيئاً. وضرب كفافاً بكاف وقال لعلها إرادة الله سبحانه يضع سره في أضعف خلقه. واستغفر الله وقال إنها إرادة الشيطان لأن الله مع الإمام ولا يمكن أن يرضى الله بهذا. واستغفر الله مرة أخرى، وقال إرادة الله فوق إرادة الشيطان ولا يمكن للشيطان أن يفعل شيئاً دون إرادة الله. وهنا أطبق شفتيه وسكت كأنما إلى الأبد وظل ينظر من ثقب الباب.

بنت الله مع الإمام

ليلة العيد والفرح لم يكن هو اختياري. ساقوني إليه في يدي سلسلة ومن حولي ثوب أبيض بلون أرواح الملائكة وكسوة الموتى. وفي سرير مزركش من الرخام الغالي كقبور الملوكات وجدت نفسي عارية كما ولدتني أمي. وتذكرت. لم أر أمي منذ ولدت وفي بيت الأطفال كنت أمشي في النوم أبحث عن وجهها في الظلمة. وفي الحلم أسمع صوت الله كصوت أمي ينادياني فأجري إليه أعانقه أحتمي في صدره من أرواح الجان والشياطين. وأنام الليل والله معي. وأصحو في الصباح ومعي المسيح. أحسه في أعماقي يتحرك. بأرجل ناعمة كالقطيفة. أحوطه بذراعي من تحت جدار البطن وأرفعه إلى أعلى تحت ضوء الشمس ليراه الله والوطن والإمام. أبتسم في الوجوه والوجوه لا تبتسم. تتقلب العيون داخل الجفون وتسقط الوجوه من فوق الرؤوس وتتصبح الرؤوس حمراء بغیر شعر والوجه يغطيه الشعر. والصوت الناعم الحنون يصبح عواء الذئب يطاردني في النوم وأنا أمشي في الظلمة أبحث عن أمي .. ومن خلفي أسمع الصوت يدوي كصوت الشيطان وأنا أجري وأقدم كثيرة من ورائي تجاري. مائة قدم أو ألف كدبب جيش لا يكفي. مائة يد أو ألف تتد تضربني من الخلف. وحين أستدير يهربون. يخافون المواجهة وجهاً لوجه. يخاف الواحد منهم أن يسير وحده. لا يشعر بالقوة إلا وفي

يده آلة قتل. يسيرون على شكل صفوف متعرجة وسيقانهم متعرجة وعيونهم معوجة. أعرفهم واحداً واحداً وأعرف وجه رئيسهم ووجوه كلابهم. يرتدي الكلب في النهار وجه الحمل وفي الليل يرتدي وجه الذئب. يسير الرجال في المقدمة ومن خلفهم الحراس ومن خلفهم الكلاب والقطط أيضاً تأتي تكشف عن أننيابها وتدب فوق الأرض بأقدام صغيرة مليئة باللحم خالية من العظم، عيونها تلمع بالشبق وبطونها متتفخة يملأها الحرمان كالهواء الراكد في الغرف المغلقة.

كنت أجري ومن بعيد أرى أمي واقفة عند الصخرة تنتظرني فوق الهضبة بين البحر والنهر. ذراعاها ممدودتان نحوي. وأكاد أصل إليها وأنجو لو لا أنني توقفت عند الطلعة أملأ عيني بالمكان حيث علامه الأمان وحيث ولدت. وأصابوني من الخلف بالطعنة. واستدرت قبل أن أسقط وأنسى الحروف، وقلت أتقنون الضحية وتتركون الجاني؟ قالوا مَنْ هو الجاني؟ وأشارت إلى وجهه المعلق فوق عمود طويل ممدود حتى السماء.

وانكمشت تحت الغطاء كما كنت أفعل في بيت الأطفال. رأيته واقفاً أمامي عارياً كما ولدته أمه. وقلت مَنْ أنت؟ قال أنا الإمام ألا تعرفين وجهي؟ قلت لا أعرفك. قال ألم تري وجهي من قبل؟ قلت لا أعرفك. قال ألا تقرain الصحف ألا ترين الشاشة ألا تنظرin إلى الصورة فوق أقواس النصر ألا تشترين طابع البريد أو ورقة دمغة؟ قلت ما هي الدمغة؟ قال ألا تعرفين الدمغة؟ قلت أول مرة أسمع هذا الاسم. قال أنت لا تعيشين في هذه الدنيا ولست واحدة منا. وإذا لم تعرفي الإمام فأنت لا تعرفين الوطن وإذا لم تعرفي الوطن فأنت لا تعرفين الله. وقال ألم تسمعي الهتاف «الله الوطن. الإمام»؟ قلت لم أسمعه. وضرب كفأ بكf وتعجب غاية العجب وقال أنت في حزب الله أم في حزب الشيطان؟ قلت لا هذا ولا ذاك. قال هذا عجيب هل قرأت كتب

التراث؟ قلت أنا لا أقرأ. قال إذا كنت لا تقرأين أ فلا تسمعين؟ ألم تسمعي عن حكايات ألف ليلة وليلة والملك شهريار؟ قلت من هو شهريار؟ قال ألا تعرفين الملك شهريار الذي خانته زوجته البيضاء كالشهد مع عبد أسود. قلت لا أعرفه. قال أتعرفين لماذا تفضل الزوجة البيضاء عبداً أسود على زوجها الملك الأبيض؟ قلت لأنها تحبه أكثر من زوجها. وضرب كفأ بكف وتعجب غاية العجب، وقال: هل يمكن للمرأة أن تحب رجلاً أكثر من زوجها؟ قلت نعم. قال: حتى ولو كان زوجها الملك أو الإمام؟ قلت نعم. قال: وماذا يكون عند هذا العشيق ولا يكون عند الإمام؟ قلت الحب. قال مقهقاً بصوت كجلاجل طبول العيد فارداً ذراعيه يحتضن الكون: عندي من الحب ما يكفي جميع الناس وقلبي يتسع للجميع. قلت: إذا اتسع قلبك للجميع فلا أحد فيه.

كان راقداً على وسادة مزركشة من ريش النعام مستندأ بكتوعه الأيمن على الأرض فوق سجادة من العجم عليها صور الكعبة. وفي يده اليسرى كأس الخمر. وكوعه يصنع في الكعبة حفرة عميقه. اهتز الكأس في يده قليلاً، وانسكب قليلاً من الخمر في الحفرة داخل الكعبة. اعتدل قليلاً بجسمه العاري يغطيه الشعر. وثبتت عينيه فوق جسدي العاري الحالى من الشعر. وقال لماذا لا تركعين بين قدمي؟ قلت لم أرکع في حيati لأحد، قال لست أي أحد وجميع النساء تركع. قلت لست أي واحدة. قال وماذا تكونين أنت؟ قلت امرأة بلا اسم ولا أب ولا أم ولا أكتب ولا أقرأ ولكنني لا أحبك وفي قلبي حب آخر.

وهنا اهتز الكأس في يده وانسكب الخمر كله مغرقاً الحرم والكعبة وقبير الرسول. وانتصب واقفاً عارياً والشعر فوق جسده منتسباً وعظامه أيضاً انتصبت حتى النخاع. هاجت شهوته وعقله ذهب. فلا شيء يلهبه ويأخذ عقله قدر امرأة غير مملوكة له. ولا يطفئ النار إلا أن يمتلكها بين

يديه ورجليه ولا يستبقى منها شيئاً حتى اللحم فوق العظم.



كان جالساً أمامها يمتص عظامها ويكسر العظام كعود القصب فوق ركبته، يمتص النخاع وهي أمامه ترقبه كما ترقب خروف العيد يدخل دكان جزار وعيناه غائرتان في الوجه حتى العظام. ولا شيء يملأهما إلا الخوف. لا يشبع مهما أكل، ومهما آمن لا يأمن.. وهي تناول العظام وراء العظام ولوحة الكتف والإلية والطحال. امتلاء معدته حتى الحافة وانتفخت كقربة من جلد الماعز. وهي تناوله لا تكف.. حتى سمعت صوت الانفجار ورأت وجهه يسقط إلى الأرض وعيناه تتسعان بالدهشة، لا يكاد يصدق، وقالت أوله لعب وآخره عطب، وانطلقت كالغزال تركض ومن خلفها كلبها.

الإفاقه بعد النسوية

في ظلمة الليل امتدت يدي اليمنى إليها فامسكت يدي بأسنانها كأسنان القطة. ناديتها قطتي الصغيرة باسم زوجتي القديمة كاتي. هربت مع الحب القديم وراء البحار وتركتني وحدي في العالم الآخر. قالت لست قطتك الصغيرة. قال إذا لم تكوني قطة فأنت من فصيلة النمور. وضغطت بأسنانها على يدي حتى قطعت اليد عن الذراع. لم يخل القطع رغم القسوة من لذة. ومددت لها يدي الثانية أمسكتها بأسنانها وقطعتها. قلت ليس الأمر بهزل. مددت لها ساقي اليمنى فامسكتها وفعلت بها ما فعلته باليد اليمنى واليسرى. وفتحت عيني وأنا راقد وجهي ناحية الأرض ورأيتها واقفة أمامي. عرفتها على الفور. الوجه الشاحب النحيل والعينان السوداوان تتسعان لجرائم العالم. وقلت أنت بنت الله أتنكررين بوجه آخر وجسد آخر؟ ولم تفتح شفتيها وظلت واقعة أمامي صامتة. قلت لنفسي إذا ظلت صامتة فهي تفكر أكثر مما تضي به الشريعة فالمرأة خلقت من ضلع أفعو ناقصة العقل والدين. وحاولت الاقتراب منها أتأكد من ملامحها. واكتشفت أن لي ساقاً واحدة وأنني لا أسير فوق الأرض. وبدأت أزحف فوق بطني وهي واقفة لا شيء فيها يتحرك. قلت لنفسي إنها ساحرة رشتني بکوز الماء وأنا نائم وأصبحت خروفاً أو سحلية، لم يكن لها وجه الساحرات وفي عينيها بريق أسود كعيون الشياطين وأرواح الجن. قرأت آية الكرسي لأطربدها لكنها لم تذهب.

واقفة في مكانها كالصخرة شفتاها مطبقتان في صمت داخل الصمت.
ويذوي الصمت في أذني كزلزال الموت وأمد يدي نحوها لتمسكنني
فتختفي ذراعي. وأمد لها ساقي فتحتفي الساق ومعه الجسد ومعه
شهوات الدنيا، وأقول - إمسكي يدي يا ابنتي وقد شبعت من الدنيا حتى
الزهد، ولا أريد منك شيئاً إلا الاعتراف أنني أبوك.



اتسعت عيناي بالدهشة وقلت ولدتي أمي بغير أب. قال لا يولد
ولد أو بنت بغير أب وأنا أبوك الإمام. قلت أنا لا أعرفك ولم أر وجهك
إلا الآن وأبي هو الله وأنا بنت الله. قال إخري قطع لسانك سبحانه لم
يلد ولم يولد. صوته كالنائم لا يطلع ويملوح في الهواء بذراعين غير
مرئيتين وصوت غير مسموع. يقول شبعت من شهوات الدنيا ولم تبق إلا
شهوة واحدة وهي أن أفتح رأس هذه المرأة وأسحق عقلها لتصبح امرأة
مثل كل النساء المثاليات: جسد غير مرئي لا يحتوي إلا الرحم. وكان لا
يزال يرى صورته الأولى في المرأة قبل أن تسحره خروفاً للعيد، وصوته
لا زال يذوي في أذنيه وهو يلقي الخطبة وصواريخ العيد تفرقع ومن
حوله الرجال والأعون وحزب الله يرقص وحزب الشيطان يهتف.
ويحرك رأسه من السماء إلى الأرض محولاً عينيه عن السماء. فالله معه
والشيطان معه وهو لم يعد يخشى منْ معه. وتمر عيناه دون توقف على
وجوههم جميعاً وكل منهم يدفع الآخر بكوعه إلى الوراء ويحتل مكانه في
الصف الأمامي. يحرك رأسه بعيداً عنهم وعيناه تبحثان عن الوجه
الشاحب، والعينان بلون سواد الليل. من يكون؟ من تكون؟ رجل أو
امرأة؟ إنس أو جن؟ وأغمض عينيه لينام مرة أخرى، وأدرك أنه كان
نائماً من قبل، وأن نومه عميق أعمق من نوم السحالف ولا شيء
يوقظه، لا دوي الرصاص ولا الصواريخ.

الكاتب الكبير

في الصف الأول وأنا واقف تحت الضوء إلى جوار الإمام. والهتاف يدوي في أذني. وصواريخ العيد تفرقع. لم يكن يفصلني عن مقعد العرش إلا جسد رئيس الأمن عن يميني، وجسد المعارض الشرعي عن يساري. وأنا واقف بينهما كنقطة الوسط بين حبلين مشدودين. إذا ارتحى اليمين ملت برأسى إلى اليسار، وإذا اشتد اليسار أرخت عنقي وملت بجسدي إلى اليمين. وأنا واقف مرفوع الظهر أرتدي بدلة العيد بلون البن المحروق من الصوف المستورد دليل ولائي لليمين وربطة عنق حمراء دليل تعاطفي مع اليسار. وفي يدي القلم أمسكه كالعصا من المنتصف. وأثبتت قدمي في مركز فوق الأرض بين حزب الله وحزب الشيطان. وأظل واقفاً في نقطة التعادل فوق قدم واحدة. أثبته لا أحركها. ومهما اهتزت الأرض لا أحركها. فالرجل منا إذا وضع قدمه في الصف الأول لا يتركه وإن سقطت السماء على الأرض أو سقط وجه الإمام من فوق رأسه إلى تحت المقعد. فالأقدام كثيرة والمكان ضيق وما أن يحرك الواحد منا قدمه حتى تختل مكانه قدم أخرى. وكل قدم تدفع القدم أمامها في كعبها. وكل كوع ينغرس في البطن خلفه كالمسمار. وأنا واقف في مكاني لا أتحرك. ورأسي متوازن مع جسدي. وجسدي في وضع عمودي مع الأرض ووجهي ناحية الإمام. والإمام وجهه الناحية الأخرى. لا ينظر

إلى وأنا أنظر إليه. وكان الوضع معكوساً في المدرسة وهو جالس إلى جواري في الفصل. ينظر إلى وأنا أنظر إلى الناحية الأخرى. وكان ترتيبه الأول وهو من خلفي. وإذا مشيت يسير ورائي. سبحانه مغير الأحوال جعلته يسير أمامي واللهم لا اعتراض على البلاء. ولا يحمد على مكروره سواك. وإن كنت أؤمن يا رب أنك لا تخلق إلا الخير، والشيطان يخلق الشر. أستغفرك يا رب. فالشيطان ليس خالقاً والخالق هو أنت لا شريك لك. لكن لماذا يا رب تضع سرك في أضعف خلقك وتعطي الحكم لمن لا يفكر وتعطي الفكر لمن لا يحكم؟ وهذا هو البلاء والبلاء شر. إذا جاء من عند الله فهو امتحان وعليها القبول والطاعة. وتذكر كلام الله ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَّ﴾. وإذا جاء الشر من عند الشيطان وجئت مقاومة والعصيان. لكن كيف نعرف من أين يأتيها البلاء من عند الله أم من عند الشيطان؟ الله لا اعتراض ولا أحد سواك يجعل البلاء خيراً، والخير بلاء، سبحانه مغير الأحوال. وكنت أنا بالأمس قوي الجسد ضعيف الروح، وأصبحت بعد النضوج ضعيف الجسد وروحي صعدت إلى السماء. ولم تعد زوجتي الشرعية الأخيرة تقرأ ما أكتب. ترفض قانون الطاعة والشريعة وتجادلني في المقدسات، تضع رأسها برأسى وعقلها بعقلي. وهذه بدعة لم أعرفها مع زوجاتي القديمات الشرعيات وغير الشرعيات المستديمات منهن والمؤقتات. لم يكن صوت الواحدة منهم يعلو على صوتي. وإذا ضحكت تضع يدها على فمها وتستغفر الله. وإذا ضربتها حسب الشريعة للتأديب لا تعرف الشكوى. وإذا تسللت من فراشها إلى عشيقتي تتظاهر بالنوم وإذا كانت نائمة أصلاً غابت في نوم أعمق. لكن هذه الزوجة الأخيرة تفتح عينها وهي نائمة وسود عينيها أسود بلون وجه الشيطان. وتضحك بصوت عال أعلى من صوتي وتلقي برأسها إلى الوراء بحركة لم أصل إليها بعد. وتقهقه بكل رئتيها طاردة الهواء من صدرها وبطنهما. ويرن صوتها في أذني أكثر انطلاقاً من صوتي

حين أقهقهه. وأدرك أن في أعماقي هواء مكبوتاً منذ الطفولة أحاول أن أطرده دون جدوى. وصوتها وهي تضحك وتقهقه يثير في الغيرة أكثر مما يثير الشهوة. وأتركها فوق السريرة عارية وأجري إلى عشيقتي. تحاول أن توقظ ذكورتي دون جدوى بالخضوع والاستماتة وهي تختفي. وتقول لي إنها الشيخوخة وقوة الروح أو موات الجسد ويقطة العقل. وأعارضها وأقول بل هو غياب الدين والأخلاق وخلع النساء برقع الحياة. وتطلق بأنفها صوتاً كحشرجة الشخير أول النوم. وتستدير فيصبح ظهرها ناحيتها ووجهها ناحية السماء. أرتدي سروالي وأعود إلى زوجتي فلا أجدها في الفراش. وأرقد وحدي أحملق في السقف. وأرى وجه أبي معلقاً داخل البرواز فوق الجدار. وجهه مستدير مليء باللحم مشرب بالدم والحياة كوجهي. وأنفه مستقيم عاقل يشبه أنفي، يؤكّد دون شك أبوته لي وإخلاص أمي له. رأسه متزن مع جسمه في وضع عمودي كرأسى دون انحراف إلى اليسار أو اليمين. خير الأمور الوسط يا ابني. لكنه لم يعرف الوسط مع أمي. يضرّبها بالنهار وفي الليل تضرّبه. أسمعها تئن طول اليوم وفي ظلمة الليل أسمعه يئن. ويقول يا ابني الرجل منا مع المرأة ضارب أو مضروب. عابد أو معبد. ولا وسط بينهما. وتقول أمي يا ابني المرأة منا مع الرجل إما زوجة محترمة غير مرغوبة أو عشيقه مرغوبة غير محترمة ولا وسط بينهما. وتطفو فوق وجهها سحابة رمادية بلون الشبوره وتنام ووجهها للحائط، وأبي ينام ووجهه ناحية الله في السقف. وأنا بينهما فوق السرير العريض أتکور حول نفسي كالجنين. وأسمع صوت أبي يقرأ كتاب الله قبل أن ينام. ويردد آية الكرسي ثلاث مرات يطرد الشياطين وأرواح الجنان. وإذا غلبه النوم مد يده تحت الوسادة ووضع كتاب الله إلى جوار المسدس الأسود هدية العيد من أبيه وهو طفل. يتحسسه بأطراف أصابعه وهو نائم إذا سمع نباح كلب. وإذا تحركت غدة الشيطان تحت سرواله وهو نائم مد إليه يده اليمنى. ويده

اليسرى تتدلى إلى أمري من تحت الملابس. وتلمع أمري طرف المسدس من تحت الوسادة فتخلع ملابسها وهي تستغفر الله وتستعيذ بالله من الشيطان والإثم، وتوطضاً خمس مرات بالماء والصابون وتصلي لله سبع ركعات قبل أن تنام وتلف رأسها بالحجاب وتغمض عينها وتروح في النوم كالملائكة الأطهار. وأغيب أنا في نوم عميق كالأطفال لا أسمع ولا أرى إلا الأشباح وأرواح الجنان. ويغمرني الخوف من كل جانب كالهواء البارد وأثبتت جسدي في منتصف السرير لا أتحرك إلى اليمين أو إلى اليسار. وأبتعد عن جسد أبي وجسد أمري، أخافهما، هما الاثنان. ومع الخوف تتسرب الكراهة إلى جسدي تحت الغطاء مع الهواء. ومهما عانقته أمري أبتعد. ومهما أحبني أبي لا أحبه. وكان أبي شيخ طريقة يكتب للنساء الأحجبة في الغرفة المظلمة. مهنة فرضها عليه أبوه ليتحقق في عالم الدين ما لم يتحققه في مزرعة الأرانب والفراخ. يعلق في رقب النسوة كلام الله داخل حجاب تتدلى منه خرزة زرقاء. يدخل إلينا باللحم والخضار وفي جيوبه القروش تفوح بعرق النساء. وأغلق الباب على نفسيي أذاكر دروسي ويوم الامتحان أتذكر الصلاة. أسجد لله ثلاثة ركعات وأطلب منه النجاح. يسمع الله دعائي وأنجح العام وراء العام.



كنت أعيش النجاح لا أعرف الفشل ولا الهزيمة. يتسلط الكاتب وراء الكاتب وأنا في مكاني إلى جوار الإمام ثابت. لا أكف عن الكتابة ولا أقرأ ما أكتبه وأنظر إلى صوري داخل البرواز. والنهار أقضيه كمساحة من العمر بين الحلم والحلم. والليل طبقات من النوم أقضيها في السهر مع الإمام. نشرب نخب الصداقة القديمة ونسلل في الظلمة معاً إلى بيت السعادة، وفي الحفلات والأعياد أقف إلى جواره أسمعه وهو يتنهه تحت الشمس وعين السماء مفتوحة بألوان الطيف والناس تهتف. وأدرك أن في

الكون إرادة فوق إرادة الشيطان تدفعني إلى دخول حزب الله والهتاف مع الناس. وأتلفت حولي وأنا واقف تحت الضوء أبحث في الكون عن هذه الإرادة فوق إرادتي. لا أعرف من أين تأتي. فهي تأتي من مكان خارج كياني. من قبة السماء أو من بطن الأرض. من الشوارع أو الأزقة والحواري. من البيوت كالقبور ومن فوقها الدخان. من عيون الناس المكسورة. من وجوه الأطفال يغطيها الذباب. من العلم المرفوع يوم الهزيمة. من صواريخ العيد تدوّي في أذني كطلقات الرصاص. وأنا واقف إلى جوار الإمام وقدمي فوق الأرض ثابتة لا أحركها. أخشى إن حركتها أن يضيع مكاني. وأرى عين السماء فوق الرؤوس ترعاها. وحين سقط وجه الإمام من السماء إلى الأرض تظل السماء كما كانت والهتاف يدوّي وصواريخ العيد تفرقع وأنا راقد إلى جواره أخفى وجهه في الأرض كأنما لم أر شيئاً. وكأنما الإمام الجديد ليس هو القديم فالوجه هو الوجه ولم يتغير إلا الجسد. وهو إلى جواري راقد وأمام عيني سحابة شفافة كالضباب. وذرات تراب تدخل أنفي. ورأسي لم يعد متوازناً مع جسدي. وجسدي لم يعد في وضع عمودي مع رأسي. وقدمي دفعتها قدم أخرى واحتلت مكاني. عيناي تتحركان من تحت الجفون المغلقة ناحية اليمين واليسار ولا أثر لأحد من حزب الله أو حزب الشيطان وجسد الإمام أيضاً اختفى. وأنا راقد وحدي تحت عين السماء وملمس الأرض تحت صدري بارد. وصوت أبي يدوّي في أذني كصوت الإمام. وأنا أمد إليه بصربي لكن بصره ممدود إلى الناحية الأخرى. ويسري الفشل في عروقي كالدم البارد. وأغمض عيني في راحة أبدية. أستنشق التراب على مهل لا أتعجل الموت. وفي عنقي مفتاح الجنة لا أتعجل السعادة أو الفردوس. وفي خيالي سبع وسبعون حورية شقراء وسمراء لا أعرف كيف اختار. وفي حلقي يسري الموت بطريقاً لا يخلو من اللذة. أرشفه على مهل رشفة رشفة كالخمر. أوله مر وأخره حلو. وأضحك بصوت

عال وأقهقه طارداً الهواء من صدرني وبطني. ويرن صوتي في أذني أكثر انطلاقاً من صوت زوجتي الأخيرة. لم يعد في أعماقي هواء مكبوت منذ الطفولة، ولا شيء يثير في الغيرة أو الشهوة. شُبعت من شهوات الدنيا حتى الزهد ولم يبق على وجهي إلا بسمة الملاك.



حملوه في الصندوق المزركش إلى زوجته الأخيرة وعلى ظهر الصندوق اسمه بالبنط العريض وصورة داخل برواز يبتسم فيها كالفتاة العذراء. وظللت هذه الابتسامة في ذاكرة الزوجة الأخيرة تكشف لها عن أعماق زوجها الخزينة. وعن ظهر قلب حفظتها كدليل مادي على أنه قادر على الحزن. لم تكن تسمعه إلا وهو يضحك ويقهقه. وجمعهما الحزن وهو غائب كالحب. كان يغيب العام وراء العام وهي تذكره. وفي كل لقاء تحوطه بذراعيها فينزلق من بينهما كالسمكة. تحاول الإمساك به دون جدوى. تخرج يدها من البحر خاوية ولا ترى منه إلا الصورة داخل البرواز. وحروفه المطبوعة فوق الصحيفة لا تقرأها ولا هو يقرأها ولا أحد يقرأها إلا الإمام. وفي الليل تراه راقداً مفتوح العين يرمي أنف الطفل النائم بعيون يملأها الشك. الأنف ليس أنفه ولا أنف أبيه ولا جده. يمسك أنف الطفل بين أصابعه كمن يقبض على دليل الخيانة. يفتح الطفل في الظلمة عينين واسعتين تتسعان لخوف العالم. يغمضهما على الفور حين يرى عين أبيه حمراء كعين الشيطان. وسمع أبوه يسأل أمه: ابن من هذا؟ قالت أمه: ابن الحب. وأدرك وهو طفل أنه ليس ابن أبيه. أغمض عينيه ونام في سعادة حتى الصباح.

دليل البراءة

كان واقفاً مشوقاً الظهر رأسه في السماء تحت الشمس فوق جبينه علامة الإيمان وفوق صدره نجمة النصر وفي أذنه يدوى الهاتف «الله معك»، يهتز رأسه من شدة الدوي ويرتخى وجهه وينحني ليسقط بين قدميه وهو يخطب وعن يمينه رئيس الأمن وعن يساره المعارض الشرعي وكاتب الكبير، وصواريخ العيد تفرقع. رأسه لم يعد عالياً تحت الشمس، ووجهه يتوجه ناحية الأرض وذرات التراب تدخل أنفه، ورئيس الأمن ينظر إليه في صمت كأنما لم يحدث شيء. يفتح فمه ليسأل قبل أن ينسى السؤال: إيه جرى في الكون؟ ويفتح رئيس الأمن فمه ليرد: ولا حاجة يا فندم كله تمام والله معك. ويرتج جسده بالغضب. معي إيه يا أعمى ألا ترى؟ ويشد رئيس الأمن جفنيه ليفتح عينيه ويشد النبي من داخل العين وينظر حواليه في الظلمة يلمحها تجري كالغزال ويضم عضلات شفتيه مطلقاً زمارة الخطر. تنشق الأرض عنهم جميعاً من حزب الله وحزب الشيطان. يأتون من جميع الأركان يتدافعون بالناكب ويتراسقون بالاتهامات. ومن خلفهم كلابهم تنبع. وأمامهم رئيس الأمن يجري. وفي يده الكشافات. وهم من خلفه يجررون. لا يعرفون لماذا يجررون. لكن الأمر صدر وحين يصدر الأمر فلا سؤال ولا جدل. فالجدل بدعة أجنبية لم ترد في التراث. ومن أحدث في أمرنا ما ليس في التراث فهو فتنة

والفتنة أشد من القتل. ولا يجادل في ذلك إلا كافر بالله خائن للوطن والإمام. وإذا صدرت الخيانة من الأنثى فهي تزيد عن الكفر وخيانة الوطن إلى الفاحشة وفقدان الشرف. والشرف عندنا هو الأرض، والأرض هي العرض. ولا شيء أثمن عندنا من امتلاك أجساد نسائنا، فلا يتسرّب الشك إلى قلوب الرجال في النسب. تظل الأبوة معلومة باليقين. ويتم الفصل بين الطفل الشرعي والآخرين المجهولي الأب. ولا يجوز لطفل أن يكون ابن أبيه إلا باعتراف أبيه. وإذا أنكر الأب ابنه فليس للأبن حق إلا الصلاة والصوم والتکفير عن الذنب. وذنب البنت ضعف ذنب الولد. وفي غير ذلك من الحقوق يكون للبنت نصف حقوق الولد.



أقدامهم من خلفها تدب بأحذية حديدية وأنفاسهم تلهث ومن خلفهم كلامهم تلهث. وهي تجري لا تعرف لماذا تجري. والظلمة داكنة. وفي الضوء البعيد ترى أمها واقفة تنتظرها وصوتها يناديها: بنت الله تعالى. ذراعاها ممدودتان نحوها لا يفصلها عنها إلا ثلات خطوات. قفزت الخطوة الأولى والثانية. ولم تبق إلا الأخيرة. وتوقفت عند منعطف الطلعة بين البحر والنهر، تماماً صدرها برائحة المكان حيث ولدت وحيث تموت. أصابتها الطعنة من الظهر وقبل أن تسقط وتنسى الحروف استدارت وقالت: ما هي جريمتي وأنا عذراء لم يمسني بشر؟ قالوا: الأنثى إذا ماتت وهي عذراء تدخل الجنة ولن نرسلك إلى العالم الآخر إلا وأنت غير عذراء.



مسح رئيس الأمن العرق وهو يلهث بمنديل حريري من أجود الأنواع، ومسح الطابور من خلفه العرق بمنديل أقل جودة. كلامهم من خلفهم مسحت العرق بكفوفها السمراء المشقة دون منديل. دوت

أصوات السلسل تجلجل بصوت عال كدوبي الهاتف في عيد النصر وجلاجل الضحك في يوم الزفاف. وهي بين السلسل تزحف كخروف العيد وعين السماء حمراء تحت الشمس والملائكة في الأثواب البيضاء تصفق. حزب الله على الدفة يضرب. وحزب الشيطان على الدفة يرقص. وهي مربوطة في الأرض ذراعاها مفتوحتان وقدماها مشدودتان قدم إلى أقصى اليمين والقدم الأخرى إلى أقصى اليسار. وفي نقطة الوسط حيث عالمة الشيطان يقذفون الحجر وراء الحجر. وهي في مكانها ثابتة لا تتحرك. وجهها نحيل شاحب وعيتها واسعتان تتسعان لثبات العالم والتي أسود بلون الليل وعقلها صافٍ كماء التهر.

في الغرفة المظلمة في بطن الأرض ظلت عيناه مفتوحتين لا تكفان عن الرؤية وذاكرتها واعية لا تفقد الوعي. وجه أمها كوجه الله لا يغيب. وصوتها الناعم في أذنها ينادي: بنت الله تعالى. ترفع عينيها إلى السماء. وينختفي وجه الله بين السحب ويظهر وجه الشيطان. مليء بالشعر وجلد الرأس حمراء تحت الشمس. وتسمع صوت رئيس الأمن يقول: ما اسمك؟ قالت: اسمي بنت الله. قال: اسمك في حد ذاته جريمة كفر: منْ أعطاك هذا الاسم؟ قالت: كانوا ينادوني في بيت الأطفال بنت الله وكانت لي أخت اسمها نعمة الله ماتت وهي طفلة وكان لي أخ اسمه فضل الله مات فداء الوطن، فهل لك أخت ماتت وهي طفلة أو أخ مات في الحرب؟ قال: ما اسم أخيك بالضبط؟ قالت: اسمه فضل الله. هز رأسه ومسحه بالمنديل الحرير مرتين واستعاد بالله ثلاث مرات، وقال: أنا أعرفه وله عندي صورة في الملف وليس له اسم في حزب الله أو حزب الشيطان، وهذا دليل أنه ليس واحداً منا ومن ليس منا فهو تلبيس إبليس. قالت مات أخي فداء الوطن وحاربت معه في خندق واحد ورأيته بعيني وهو يحارب الأعداء. قال ماذا قلت؟ كنت

معه في خندق واحد؟ قالت: نعم. قال: أنتما الإثنان فقط؟ قالت: نعم، قال: إنها جريمة أخرى. لا يجتمع رجل وامرأة في خلوة غير شرعية إلا والشيطان ثالثهما. قالت إنه أخي. قال: أنت أخته في الرضاع وحبكما حرام. قالت: لم يكن لنا أم ولا مرضعة وشربنا لبن الجاموسة معاً في بيت الأطفال. قال جاموسة أو إمرأة سيان فهي ترضع ولها أثداء وهو أخوك في الرضاع بأمر الإمام وعقابك الرجم حتى الموت. قالت أنا بريئة عذراء ولم يمسني أحد. قال سنكشف عليك لنرى دليل العذرية، فلا براءة بغير دليل مادي.

القاضي

في الغرفة المظلمة في بطن الأرض رأيت وجه القاضي تحت الضوء. عرفته على الفور وقلت قبل أن يختفي الضوء: أنت الإمام. قال أنا القاضي ولست الإمام. قلت أيكون القاضي هو الجاني؟ قال: أنا الذي أسألك وأنت ليس لك حق السؤال. وانطفأ الضوء الأخير وأصبح الليل أسود. عيناي أفتحهما وأغلقهما سيان. السوداد هو السوداد. والهواء بارد كالبحر الأسود. وصوته في أذني ثقيل الكثافة كالذهب السائل. وهو واقف أمامي يرتدي وشاحاً أسود فوق اللحم ورأسه يلمع بغير شعر. ووجهه يغطيه الشعر. وعيناه غائرتان حتى القاع. قال ألا تعرفين وجهي؟ قلت نعم أعرفه إنه وجه الإمام. قال أنا لست الإمام أنا القاضي، ألا تعرفين القاضي؟ قلت لا أعرفه. لم أر في حياتي قاضياً. قال ألم ترى وجهي في الصحف أبداً؟ قلت لا أشتري الصحف. قال ولماذا لا تشترين الصحف؟ قلت ثمن الصحيفة يطعني الخبز ثلاثة أيام. قال هل يعيش الإنسان المتحضر بالخبز فقط؟ ألا تهتمين بالثقافة؟ هل أنت جاموسية أم امرأة؟ قلت ثمن الجاموسية أغلى من ثمن المرأة ويملك الرجل جاموسية واحدة وأربع زوجات، ولم يكن لي أم ترضعني، أرضعني الجاموسة في بيت الأطفال، وكان لي أخت ماتت وهي طفلة، وأخ مات في الحرب فهل ماتت لك أخت وهي طفلة؟ وهل مات لك أخ وهو يقاتل؟ قال:

مات الإمام وهو يقاتل ومات الرسول وهو يقاتل ومات المسيح وهو يقاتل .. وأنا القاضي أقاتل مثل الأنبياء جعلني الإمام قاضياً في الدورة الأخيرة، وأمرني أن أوضح للناس ما علمني إياه منذ صبائي. والنفس البشرية لها أربع دورات منها مَنْ تعشق الضلال والكفر مثل نمرود وسفروت عازوراء الذي قاد الكفر في عهد النبي. وقد رأيت الله في النام قبل أن يراه أحد من حزب الشيطان. وشاهدت الرسول في ليلة الوضوح قبل العيد الكبير. ورأيت جميع الرسل ابتداءً من آدم إلى نوح ويُوسف وهارون وداوود وسليمان وزكريَا وعيسى وموسى. ووقفت بين يدي الرسول مرفوع الرأس أنكمش في تواضع داخل ذاتي. و يأتي جبريل عليه السلام على شكل الملاك الظاهر فيحملني على جناحيه إلى ممتد المشاهدة. وأغمض عيني ثم أردهما فإذا بي في الملائكة الأعلى وهو سدرة المتهى. وأسمع صوت الله ينادياني : يا قاضي القضاة الآن أكشف عنك غطاءك ليكون بصرك حديثاً ووجهك جديدةً وذاتك جديدةً. وتنكشف ذاكرتي تماماً وأدرك أنني ذات الإمام أو الإمام ذاته في دورات سابقة والله أعطاني أسرار الكون والعلوم والطب، فأنا أعرف الداء وأصف الدواء، وأعرف الصادق من الكاذب، وأعرف صوت الله من صوت الشيطان، وأعرف المرأة الحامل من غير الحامل، وأعرف العذراء من غير العذراء، وأعرف نوع الجنين قبل أن يولد، وأعرف الأب الشرعي من غير الشرعي، وأداوي النساء من آلام الطمث أو الحرج أو الشبق الزائد عن الحدود المشروعة، وأعطي كل امرأة من الأسرار بقدر ما تعطيني من خير وما تتصدق به لوجه الله، ولا يضيع أجر من تدفع بسخاء، وإذا أعطيت ما أعطاك الله فسوف أقول لك إذا كنت عذراء أو غير عذراء، وإذا كان الجنين في بطنك ذكراً أو أنثى وإذا كان ابن حلال أو ابن حرام.

انسحب الدم من وجهها الشاحب، وقالت: أقسم لك أنني عذراء لم يمسني رجل وإذا وجدت في بطني جنيناً فلا بد أنه المسيح وقد زارني

الله في الحلم عدة مرات. قال: إخريسي، قطع لسانك، إخلعي ملابسك لأفحشك فأنا الذي أعرف إن كان لمسك أحد من الإنس أو الجن، وهناك أرواح من الجان تقترب بنساء من البشر في ظلمة الليل، فاخلي ملابسك ولا تخافي.

ارتعد جسدها وخلعت ملابسها وأسنانها تصطرك ورقدت فوق المنضدة تحت يده الكبيرة تصنع فوق الجدار ظلاًً أسود من خمسة أصابع.

وامتدت يدان طويلتان غير مرئيتين وربطت ذراعيها وساقيها في الأعمدة الأربع. أربعة أعمدة للمنضدة من الرخام الأبيض البارد. نفذت بروقتها إلى عظام الظهر حين رقدت عارية وجهها للسقف. ظل واقفاً أمامها في صمت وأرخي الستارة فوق الباب. أظلمت الغرفة بظلام أسود من الظلام. لم تستطع رؤيته وهو قريب منها يكاد يلمسها. هو واقف وهي راقدة صامتة تنصلت إلى الكون والكون صامت. فجأة سمعت صوت يدين تمشيأن صوب جسدها الراقد فوق المنضدة. ثم رأت جسدها ينقلب وصوت شيء يكسر وهو تحاول أن تشد جسمها من تحت كثافة الظلمة لكن جسمها مربوط بالحبال. وسمعته ينفع وينفخ. وجسدها يزداد موتاً فوق موت كأجسام الموتى المثلجة في المشرحة. وهو يزداد توهجاً كحطب يسقط فوق الجمر. وهي راقدة ذراعاها مفتوحتان في ابهال صامت لله. وهو لا يكف كإله الدمار يطلب المزيد من الضحايا. في الضوء الخافت من شق صغير في بطن الأرض رأت الأصبع الكبير بغير ظفر والأصبع الصغير ظفره طويل. وبطن اليد أملس بغير شعر وظهر اليد قاتم اللون مكرمش الجلد. وفوق الجلد عروق ملتوية زرقاء ونقط سوداء كالنمس أو جذور شعر مات وسقط. وسمعت صوته يطلب منها أن تنفع الهواء من صدرها. ونفخت الهواء حتى لامس وجهها الحائط وحركته ببطء ناحيته لا تقوى على النظر إليه. رأت ظله فوق

الحائط طويلاً كالمارد واستدار عائداً. امتدت اليـد غير المـئـة واعتصـرت أنفـها أو حـلـمة الشـدـي لم تـعـرـفـ أـيـهـماـ. ثـمـ عـادـ إـلـىـ الـمـزـيدـ منـ النـفـخـ. وـانـدـلـعـ لـسـانـ مـنـ الـلـهـبـ كـانـ قـصـيرـاـ ثـمـ نـمـاـ طـوـيـلاـ ثـمـ قـصـيرـاـ وـتـلـوـيـ وـرـقـصـ مـلـتـهـمـاـ قـطـعـةـ مـنـ الـلـحـمـ.

ظلـتـ رـاقـدةـ فـيـ الـظـلـمـةـ وـفـيـ جـسـدـهـاـ الجـرـحـ غـائـرـ حـتـىـ الـعـظـمـ. مـنـ تـحـتـهـ شـرـيطـ أحـمـرـ بـلـونـ الدـمـ. وـفـيـ أـذـنـيهـ أـغـانـيـ العـيـدـ وـأـصـوـاتـ الـمـلـائـكـةـ تـنـشـدـ وـجـرـسـ الـكـنـيـسـةـ يـدـقـ. وـصـيـاحـ الـدـيـكـةـ قـبـلـ الـفـجـرـ. وـدـوـيـ الـأـذـانـ لـلـصـلـاـةـ وـذـبـحـ الـضـحـيـةـ. وـالـهـتـافـ فـيـ مـكـبـرـاتـ الصـوتـ: اللـهـ، الـوـطـنـ، الـإـمـامـ، وـهـوـ وـاقـفـ فـوـقـ الـمـنـصـةـ يـخـطـبـ وـعـنـ يـمـينـهـ حـزـبـ اللـهـ وـعـنـ يـسـارـهـ حـزـبـ الشـيـطـانـ. فـيـ شـرـفـةـ الـحـرـيمـ اـنـتـصـبـتـ الزـوـجـاتـ الـشـرـعـيـاتـ فـوـقـ الـكـعـوبـ الـدـقـيقـةـ، وـنـسـاءـ الـجـمـعـيـاتـ الـخـيـرـيـةـ وـأـرـاملـ الـشـهـدـاءـ وـالـأـمـهـاتـ الـمـثـالـيـاتـ، وـأـطـفـالـ اللـهـ بـالـجـلـالـيـبـ الـدـمـورـ، وـتـلـامـيـذـ الـمـدـارـسـ بـمـلـابـسـ الـكـشـافـةـ، وـالـبـنـاتـ مـنـ بـيـوـتـ السـعـادـةـ بـيـدـلـةـ الرـقـصـ وـالـصـاجـاتـ فـيـ أـيـديـهـيـنـ تـطـرـقـ، وـصـوـارـيـخـ الـعـيـدـ تـفـرـقـ وـالـطـبـولـ تـدقـ، وـالـزـمـامـيرـ وـالـزـغـارـيدـ وـالـصـرـاخـ وـطـلـقـاتـ الرـصـاصـ.

الـدـوـيـ فـيـ أـذـنـيهـ كـالـصـمـتـ لـاـ تـسـمـعـهـ. وـالـجـرـحـ فـيـ جـسـدـهـ يـنـزـفـ بـلـاـ أـلـمـ. تـتـرـكـهـ وـرـاءـهـ بـلـاـ نـدـمـ. وـتـنـهـضـ مـنـ جـدـيدـ فـوـقـ قـدـمـيهـ. تـمـشـيـ عـلـىـ الـأـرـضـ بـلـاـ جـسـدـ. كـالـرـوـحـ أـوـ الـخـيـالـ. قـدـمـاهـاـ لـاـ تـلـامـسـانـ الـأـرـضـ. وـجـهـهـاـ نـحـيلـ شـاحـبـ خـالـ منـ الدـمـ. وـعـيـنـاهـاـ وـاسـعـتـانـ وـالـثـنـيـ أـسـودـ كـالـلـلـيـلـ. وـعـقـلـهـاـ صـافـ كـالـمـاءـ الرـائـقـ فـيـ النـهـرـ.

(٤)

عـلـىـ الـبـابـ الـخـارـجيـ رـأـيـتـ طـوـابـيرـ النـسـاءـ بـالـجـلـالـيـبـ السـوـدـاءـ وـاقـفـاتـ يـنـتـظـرـنـ دـوـرـهـنـ لـلـدـخـولـ إـلـىـ الـقـاضـيـ. يـتـنـافـسـنـ إـلـىـ الـدـخـولـ وـكـلـ وـاحـدةـ تـدـفعـ الـأـخـرىـ بـكـوـعـهـاـ لـتـصـلـ إـلـيـهـ قـبـلـ الـأـخـرىـ. يـدـهـ الـمـبـارـكـةـ تـلـمـسـ الـمـرـيـضـةـ

فتشفي . والعاقر فتحمل . والحامل فتجهض . والمذنبة فتبراً . والعانس تتزوج . والمشلولة تنهض . والراقدة تقف . والواقة تبعد . والجنونة تعقل . والعاقلة يشفيها الله من عقلها . والعين المفتوحة تغلق . والعين المغلقة تفتح . فهو القاضي بأمر الإمام أعطاه الله أسرار العلوم والقانون والطب . وهو يعطي من السر بقدر ما تعطيه المرأة من الخير .



وتذكرت أنني دفعت قبل أن أدخل إليه . في الظلمة رأيت الصندوق المعلق . وكل من تدخل تدفع دون أن يراها أحد . وصوت المنادي كالهمس يدور على الطوابير الواقفة عند الباب : إدعوا يا عبيد الله . ومن يدفع اليوم يقبض غداً في الجنة إن شاء الله . ويقبض في الدنيا أيضاً من بنك الإيمان تحت رعاية الإمام . والله هو مالك الملك . وهو الغني الذي يرث الأغنياء . والمال مال الله جعل للناس حق الاستخدام فقط . والمال عندنا ملوك لرب العالمين . ومع ذلك يطلب الله من الناس الصدقة والقروض . «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة» . ادعوا يا عباد الله إلى صندوق بنك الإيمان الذي باركه الله ، وفائدة القرض خسون في المائة . فنحن نضارب في الذهب ولا نخشى الإفلاس . تقدموا دون خوف أيها المؤمنون والمؤمنات . وعند الله تزيدفائدة القرض إلى سبعين ضعفاً . ادعوا في السر دون أن يراكم أحد . فإن صدقة السر تطفئ غضب الرب وتشفي المريض . والعاقر تحمل والمشلولة تنهض . والمذنبة تبرأ . وعلى كل واحدة منكن أن تعطر المال قبل أن تلقيه في الصندوق . وكانت فاطمة بنت الرسول تعطر الدينار قبل أن تعطيه صدقة . وسئلته لماذا ، فقالت : سمعت الرسول يقول إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير .



ربطت الحزام فوق بطني لا آكل ولا أشرب وألقي القرش وراء
القرش في يد الله. وأغمضت عيني ورحت في نوم عميق كنوم
الأطفال. في الظلمة أفتح عيني وأسمع صوت الله ينادياني كصوت أمي
ناعم ودافئ كصدر الأم. وأجري إليه أظنه أمي. ومن بعيد أراها واقفة
في الظلمة تنتظري وذراعها ممدودتان. ولا يبقى بيني وبينها إلا خطوة.
أتوقف عن الجري لحظة. ألتقط أنفاسي. فتصيبني الطعنة من الخلف.
ولا أعرف لماذا يطعنون في ظهري. وقبل أن أستدير إليهم وأنسى
الحروف والكلمات، أقول لماذا تضربونني وكنت أدفع كل ما معى لله؟
ويقولون: كنا نضارب في الذهب وبنك الإيمان أفلس لأنك بنت حرام
وفألك سيء وطالعك نحس، ولن ينصرنا الله ويضاعف لنا الربح إلا
بعد إزالتك من الكون.

الشکوی

قلت: من أشکو وأحتکم؟ قالوا: للإمام. فهو حاکمنا. قلت: هل أشکو منه إلیه؟ قالوا: كلنا نشکو منه إلیه. والشکوی لغير الله مذلة. وطوبیت الشکوی في صدری لا يراها أحد. لحتنی عيون الإمام وكانت عيونه في كل مكان. قالوا: ماذا تخبئن في صدرك؟ قلت: لا شيء. وفتحوا صدری ووجدوا الشکوی مطوية وفوقها الحروف بخط يدي. أطبقوا عليها أصابعهم وقالوا: وجدنا الدليل المادي على الجريمة الكبرى. فكيف تکتبین فوق الورق بخط يدك شکوی ضد الله؟ قلت إنها شکوی ضد الإمام. قالوا: ألا تعرفين أن الإمام هو خليفة الله في الأرض وما هو ضد الإمام يكون ضد الله. قلت لا أعرف. قالوا كيف لا تعرفين؟ ألا تقرأين الصحف، ألا تعيشين في هذه الدنيا؟ قلت: لا أقرأ الصحف ولا أعيش في دنياکم. قالوا: هذه جريمة أخرى وبدعة جديدة، ومن أبدعت فينا ما ليس فينا فهي شر وفتنة والفتنة أشد من القتل.

نطق القاضي الحكم بالإعدام. وجرائمها ثلاثة الفتنة والعار والكفر. وقبل تنفيذ الحكم والصلوة على روحها الغائبة قالوا بصوت حنون: ماذا تريدين قبل أن تودعي هذه الدنيا؟ قالت: أريد محاکمة علنية ومحامياً شرعياً. قالوا: عندنا معارض شرعی ولم نسمع عن محام شرعی.

وذهبوا وعادوا وفي أيديهم المعارض الشرعي. وقف أمامها ورأسه ملفوف بعمامة بيضاء دليل الولاء للعدل، ونجمة حمراء فوق الصدر، الشعار الرسمي لحزب الشيطان. وقال بصوت رخيم: أفندي؟ قالت: أنا بريئة بغير ذنب وبغير أم وبغير أب ... وقاطعها باضطراب: بغير أب؟ قالت نعم. قال: هذا بلاء من عند الله، ونبلوكم بالشر والخير فتنـة، تعرفين هذه الآية؟ لا أعرفها. قال باندهاش: إنـها آية مشهورة جداً، الآية الخامسة والثلاثون من سورة الأنبياء، ألا تعرفـها؟ قلت لا أعرفـها. قال: جهـلـك بهذه الآية إثمـ كبيرـ، وعليـك حفـظ الآية عن ظـهـرـ قـلـبـ قبلـ الموتـ لـتـدـخـلـ الجـنـةـ بـدـلـ النـارـ.

وضع يده في جيب سرواله الغالي من أجود الأنواع، وأخرج ورقة وقلماً له غطاء من الذهب. أمسك القلم بأطراف أنامله الناعمة كأنامل الزوجات الشرعيات. وكتب بخط يده على الورقة حروفـاً دقيقة سوداء: «ونبلوكم بالخير والشر فتنـة». وأغلق القلم بالغطاء الذهبي ولفـهـ ثـلـاثـ مـرـاتـ ثم وضعـهـ في جـيـبـ سـرـوـالـ الغـالـيـ. وـخـرـجـتـ أنـامـلـهـ الخـمـسـةـ منـ جـيـبـ السـرـوـالـ نـاعـمـةـ بـيـضـاءـ مـنـ غـيرـ سـوءـ. وـقـالـ بـصـوـتـ رـخـيمـ: ردـيـ هذهـ الآـيـةـ ثـلـاثـ مـرـاتـ فـيـ الـيـوـمـ قـبـلـ الـأـكـلـ وـبـعـدـهـ، وـفـيـ الـيـوـمـ الثـالـثـ تـجـدـيـنـ نـفـسـكـ فـيـ الجـنـةـ بـإـذـنـ اللهـ.

أمسكت الورقة بـأصابـعـهاـ كالـطـفـلـةـ تـمـسـكـ قـشـةـ فـيـ مـهـبـ الـرـيحـ. وـحـفـظـتـ الآـيـةـ عـنـ ظـهـرـ قـلـبـ تـرـدـدـهـ اللـيـلـ وـالـنـهـارـ. وـمـنـ الشـقـ كـالـثـقـبـ فـيـ الـبـابـ رـأـتـهـ يـحـفـرـونـ لـهـ الـحـفـرـةـ فـيـ الـأـرـضـ. وـرـبـطـوـهـاـ بـالـحـبـالـ وـهـيـ تـرـدـدـ «ونبلوكم بالخير والشر فتنـةـ». وـسـمـعـتـهاـ آـذـانـ الإـمـامـ وـكـانـتـ لـهـ آـذـانـ فـيـ كـلـ مـكـانـ وـقـالـ غـاضـباـ: حـتـىـ كـلـامـ اللـهـ تـخـطـئـنـ فـيـ تـلـاوـتـهـ؟ قـلتـ: مـاـ الـخـطـأـ وـهـيـ آـيـةـ فـيـ الـقـرـآنـ؟ قـالـ: كـلـ الـأـخـطـاءـ مـغـفـورـةـ إـلـاـ الـخـطـأـ فـيـ كـلـامـ اللـهـ فـهـذـهـ إـحـدـىـ الـكـبـائـرـ. قـلتـ وـمـاـ هـوـ الـخـطـأـ فـيـ آـيـةـ؟ قـالـ: أـلـاـ تـعـرـفـيـ

الآية الصحيحة؟ قلت لا أعرفها. قال الآية الصحيحة هي : «ونبلوكم بالشر والخير فتنـة» وأنت تعكسين الآية وتقولين : «ونبلوكم بالخير والشر فتنـة»، وهذا خطأ جسيم في حق الله لأن بلاء الله يكون بالشر وليس بالخير. قلت لم أعرف الآية الصحيحة. قال : ومن أين لك بالآية الخاطئة؟ قلت : من المعارض الشرعي . قال : أنت كاذبة والمعارض الشرعي لا ينطـئ في كلام الله. دق الإمام الجرس بطرف أصبعه الصغير فظـهر المعارض الشرعي على الفور. رأسه ملفوف بالعمامة البيضاء وفوق صدره النجمة الحمراء. وقال : أفنـدم. سـأله الإمام عن الآية الخاطئة. وأنـكر المعارض الشرعي صـلته بالمرأة وقال : أنا لا أـلتقي إلا بالنساء الصالـحـات. وصـدقـهـ الجـمـيعـ منـ أـعـضـاءـ حـزـبـ اللـهـ وـالـشـيـطـانـ وـلـمـ يـصـدـقـواـ المـرـأـةـ الـأـثـمـةـ. أـخـرـجـتـ مـنـ صـدـرـهـ الـورـقةـ مـكـتـوـبـةـ بـخـطـ يـدـهـ. قـالـواـ :ـ هـذـاـ لـيـسـ خـطـ يـدـهـ وـهـذـهـ جـرـيمـةـ أـخـرىـ وـهـيـ التـزوـيرـ فـيـ آـيـاتـ اللـهـ وـالـأـورـاقـ الرـسـمـيـةـ. قـلـتـ أـقـسـمـ لـكـمـ أـنـهـ كـتـبـهـ أـمـامـيـ بـقـلـمـ لـهـ غـطـاءـ مـنـ الـذـهـبـ. قـالـواـ :ـ مـاـذـاـ قـلـتـ،ـ غـطـاءـ مـنـ الـذـهـبـ؟ـ قـلـتـ:ـ نـعـمـ رـأـيـتـهـ بـعـيـنيـ.ـ قـالـواـ أـتـهـمـيـنـ الـمـارـضـ الشـرـعـيـ بـالـاخـلاـسـ؟ـ قـلـتـ:ـ لـاـ أـتـهـمـهـ بـشـيءـ وـلـكـنـهـ..ـ وـقـالـواـ :ـ أـلـاـ تـعـرـفـيـ أـنـ الـمـارـضـ الشـرـعـيـ مـعـيـنـ بـأـمـرـ إـلـمـامـ؟ـ قـلـتـ:ـ لـاـ أـعـرـفـ وـلـكـنـيـ أـرـيدـ أـنـ أـقـولـ..ـ وـقـالـواـ :ـ وـمـاـذـاـ تـقـولـيـنـ بـعـدـ هـذـاـ الـذـيـ قـلـتـهـ بـلـسـانـكـ الـآنـ،ـ وـهـذـاـ دـلـيلـ جـدـيدـ عـلـىـ أـنـ لـسـانـكـ هوـ مـصـدـرـ الإـشـاعـاتـ،ـ وـوـجـبـ قـطـعـهـ مـنـ جـذـورـهـ وـفـقـ الشـرـيـعـةــ.



كانت أذنـاهـ قدـ كـفـتـ عـنـ سـمـاعـ الـأـصـوـاتـ.ـ وـظـلـتـ ثـابـتـةـ فـيـ مـكـانـهـ بـغـيـرـ حـراكـ.ـ عـيـنـاهـ تـلـمعـانـ كـالـنـجـمـيـنـ فـيـ سـمـاءـ سـوـدـاءـ.ـ وـرـأـسـهـ مـرـفـوعـ نـحـوـ اللـهـ.ـ وـإـلـىـ جـوـارـهـ كـلـبـهـ مـرـزـوقـ.ـ مـرـفـوعـ الرـأـسـ مـثـلـهـ.ـ وـأـذـنـاهـ مـنـتـصـبـتـانـ مـرـهـفـتـانـ يـسـمـعـ أـصـوـاتـهـمـ وـيـتـعـرـفـ عـلـىـ وـجـوهـهـمـ وـيـنـبـحـ بـصـوـتـ

عال حين يرى وجه الإمام. يشده من الخلف من السروال. يمسكه بأسنانه لا يتركه. وهم يشدونه بعيداً عنه دون جدوى. أطلقوا عليه الرصاص في ظهره. سقط إلى جوارها يقبض بين أسنانه قطعة من السروال الغالي من أجود الأنواع.

القوى العظمى

كنت رافعاً رأسي نحو السماء رافعاً يدي نحو ملايين البشر يهتفون لي حين دوت الطلقات، ورأيت وجهي يسقط من فوق رأسي العاري تحت مقعد العرش.. أخفيه في الأرض بعيداً عن عيون الناس. أستبدل به الوجه الآخر له ملامح الإمام. وأنهض مرة أخرى فوق المنصة. لم يلحظ أحد السقوط ولا النهوض. لكن العالم من حولي ليس هو العالم. وفوق صدري لا أرى النياشين ولا الأوسمة. ولا نجمة العدل مشبوبة بالدبوس. ولا خاتم الحكم في إصبعي. ولا أحد حولي من أعوانى. ولا أعضاء حزب الله أو الشيطان. حتى زوجتي الشرعية اختفت. وأنا وحدي لا أحد معى ومن حولي أرض كالصحراء. والنهار على مدى البصر تطل من ورائه هضبة خضراء. قلت أنا في العالم الآخر وهذه هي الجنة تلوح من بعيد. حلقي جاف منذ الطفولة. والظلماء شديد وثقتي في دخول الجنة مائة في المائة مثل ثقتي بالله. في جيبي توصية من النبي وبعض صكوك التوبه من بنك الإيمان. أخرجتها كلها من جيبي لحارس الباب رضوان عليه السلام. كان أمياً لا يقرأ الحروف المكتوبة. قلت له أنا الإمام وألقيت عليه إحدى خطبي المعروفة. لم يفهم شيئاً فهو لا يتكلم اللغة العربية. تركني عند الباب أنتظر طويلاً تحت شمس حارقة ورأسي عارياً. سأله ما بالك لا تحفل بخطبى وكان يحفل بها الناس في كل أنحاء

العالم؟ هز رأسه علامه عدم الفهم. ثم لاحت وجه امرأة يقترب من بعيد. تصورت أنها أمي فأسرعت نحوها. لم تكن أمي. كانت زوجتي القديمة. توسلت إليها أن تتوسط لي لدى رضوان. قالت لن تشفع لك إلا زوجتك الجديدة. قلت وأين هي؟ عليك بها. ورأيت المنادي بنادي. يا أهل الآخرة غضوا أبصاركم حتى تمر زوجة الإمام. ومررت امرأة بيضاء ملامحها أجنبية في عمر ابنتي ولها ملامح زوجتي الشرعية، فسلمت عليها وقلت لها: لقد كتبت في الدنيا خطباً كثيرة كنت أبدأها باسم الله وأختتمها بالصلوة على النبي فحق لي بذلك دخول الجنة. وأشارت إلى الصليب فوق صدرها، وقالت: والمسيح ومريم العذراء ألم يرد ذكرهما في القرآن؟ قلت توسطي لي لديهما. وأشارت إلى أن أتبعها فتعلقت بذيل فرستها. ولم تكن الفرسة تمشي على الأرض لشدة الزحام وكثرة إشارات المزور. رأيتها تطير في الجو لها أجنهة من الفولاذ، ورأس صغير مدبب كرأس صاروخ في آخر طراز، قلت: ما هذا؟ قالت: أنعم الله عليك بطائرة جديدة بدل الفرسة القديمة. ركبت في مقعدي في الصف الأول وإلى جواري رئيس الأمن. ومن شق الباب لاحت وجه قائد الطائرة. مستدير أبيض مليء باللحم ونقط سوداء كالنمث ولهجته أجنبية. رحبت به كعادتي مع مندوبي القوى العظمى وقدم لي قطعة من الكافيار في صحن من الفضة، وزجاجة خمر معتقة من أجود الأنواع. عند الإقلاع جاءنا صوته من سقفها بعون الله وانبعثت من سقف الطائرة لحن راقص وأصابع امرأة تطرق بالصالحات. تعرفت على وجهها وقلت: جواهر؟ قالت: من هي جواهر؟ قلت: كانت في «بيت السعادة» وكانت في سن البراءة والطيش. اهتزت الطائرة فربطنا الأحزمة على البطون وعاد الصوت من السقف يقرأ القرآن ويذيع الله أن يحمي الطائرة من السقوط أثناء الهبوط. وانزلقت عجلات الطائرة فوق أرض خضراء ملساء ناعمة كالسندس، وقلت وصلنا الجنة؟

قالت زوجتي الشرعية: ليس بعد. ولن تدخل الجنة قبل أن يشفع لك المسيح وتسددي ديونك في الدنيا. وقال الرجل ذو النمش الأسود في وجهه: ألم تسددي ديونك بعد؟ قلت: أمهلني عاماً واحداً وسوف أطلب من الله أن يمد أجلي حتى أسددي الديون. وناولته الكأس لشرب نخب الصدقة. رفضها وقال بلهجة أجنبية إن الخمر حرام وإنه أمر بإلقاء الخمور من نوافذ الطائرة. ولماذا تحرم ما حلل الله يا خواجه؟ انظر إلى جنة الله وما فيها من خمور تجري كالأنهر وحوريات بياضهن كالشهد؟ وأطلّ بعينيه من فوق السور ولم ير شيئاً وقال: أين هي الجنة يا سيدنا الإمام؟ قلت: انتظر، إن الصبر طيب ولا يمكن لأحد أن يتعدل الله، وسوف ندخل الجنة معاً بإذن الله. وقال: إذهب وحدك وسأنتظرك هنا بالطائرة وموعد الإقلاع في السادسة تماماً بتوقيت جرينتش. واعلم أنني في انتظارك لأطير بك لو أصابك مكرور لا قدر الله.

تأبطت زوجتي الشرعية ذراعي وسرنا معاً حتى المسيح. همست في أذنه بلغة لم أفهمها. هزَّ المسيح رأسه، وشفع لي، وأمرنا بالسير إلى الصراط المستقيم. وحين وضع قدمي على الصراط لم أستطع السير قيد إصبع. وقالت زوجتي الشرعية: هنا أتركك في رعاية الله والرسول. وتركتني وجسدي يرتعد. ورأيت امرأة سوداء مقبلة تجري فوق الصراط. أمسكتني من يدي قبل أن أقع. وعرفتها من وجهها. كانت جاريتي قبل أن يفتح الله لي أبواب الرزق. هربت منها في الليل قبل أن تلد ابنتي. قلت لها: أنت حبي الأول والأخير. وسررت إلى جوارها تسندني من ناحية اليمين فأميل ناحية اليسار. وتعود تسندني ناحية اليسار فأميل إلى اليمين. حتى أعيها ذلك وأعياني، فقلت لها: يا جواهر إن أردت سلامتي فاستعملني معي قول القائل في الدنيا: ستي إن أعياك أمري فاحمليني زفونة. قالت وما زفونة؟ قلت أن يطرح الإنسان يديه على

كتفي الآخر ويمسك بيديه ويحمله وبطنه إلى ظهره. أما سمعت قول الجحجون من أهل الدنيا: صلحت حالي إلى الخلف حتى صرت أمشي إلى الوراء زقفونة. قالت ما سمعت بزقفونة ولا الجحجون، ولكنني سأحملك إلى الرسول محمد. وحملتني فوق صدرها كالطفل فلما وصلنا النبي عليه السلام، قال: وهبنا لك هذه الجارية فخذها كي تخدمك في الجنة. حين صرت إلى باب الجنة قال لي رضوان هل معك جواز؟ قلت لا. قال لا سبيل للدخول إلا به. وانتظرت طويلاً تحت الشمس الحارقة ورأسي عاري موعد الطائرة أزف. ثم لاحت على باب الجنة شجرة صفصاف. قلت: أعطي ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع إلى النبي بسرعة فأخذ عليها جوازاً. قال لا أخرج ورقة من الجنة إلا بإذن من صاحب الجلالة. قلت لو رأي فسوف يعرفي وكان في الدنيا دائمًا معي، وكان لي في الدنيا أعون كثيرون في حزب الله وأصدقاء بلا عدد داخل البلاد وخارج البلاد من الملوك والزعماء، وجميعهم جاؤوا وساروا في جناتي، كان المشهد مهيباً. ألم تر الصورة على غلاف النيوزويك؟ قال رضوان: ما سمعت عن النيوزويك إلا الآن. قلت: إذا كنت لا تعرف النيوزويك فأنت لا تعرف العظماء ولا القوى العظمى.

انتظار الأم

كان الصوت يدوي في أذني كالصمت وأنا واقف تحت لهيب الشمس ورأسني عار. ألم غامض في صدرني كالجرح أو الثقب الغائر حتى القلب. وباب العالم الآخر مغلق. والعالم الأول والثاني والثالث والرابع كلها تسير بدوني. وجماهير الناس تهتف لغيري. وصواريخ العيد تفرقع. وحارس الجنة لا زال ينظر في جواز سفري. عيناه تفحصان صوري من تحت نظارة سوداء. يسألني السؤال وراء السؤال. قلت معي توصية من النبي وأريد لقاء الله. وسألني هل عندك موعد سابق؟ قلت لا، ولكنه سيعرفني حين يرى وجهي. وسألني أهي مقابلة شخصية أم لصلاحة عامة؟ قلت لصلاحة عامة. وسكت عن الكلام. لم أعرف ماذا أقول. قال المصلاحة العامة لا تكون سراً. يرمقني من تحت النظارة السوداء بنظرة متشككة كرئيس الأمن يتدخل فيما لا يعنيه. تركني أمام الباب انتظر طويلاً. وأمسك في يده سماعة التليفون وانهمك مع امرأة في حديث هامس. يضحك ويقهقه بصوت عالٍ ويخاطبها بلغة المذكر. انتظرت صامتاً لا أعكر عليه صفوته. وحين انتهى رأني واقفاً وقال: أتزال هنا؟ قلت: أرجوك دعني أقابلها. قال: لماذا تريد أن تقابلها؟ قلت: لأطلب تأجيل موقي عاماً واحداً، قال: عام كامل يا لك من مفترِّ قل شهراً أو شهرين. قلت يا سيدنا رضوان لن يكفي شهر لإعادة تسليح

الجيش وتسديد الديون ومقاومة الهزيمة في نفوس الناس. لا أريد هذا العام من أجل لذائذ الحياة الدنيا ولكن من أجل الله والوطن.

دق جرس التليفون وببدأ الحديث مع امرأة أخرى بصوت عال حاد النبرة وأنهى الحديث بسرعة. وعرفت أنها زوجته الشرعية. قلت قبل أن يدق التليفون مرة أخرى: لا زلت أنتظرك يا سيدنا رضوان. وكان قد انهمك في قراءة الأوراق فوق مكتبه، ورفع إلى عينيه من تحت النظارة السوداء وقال: فوت علينا بكرة. وأسعفتني تجارب الماضي في مثل هذه المواقف مع حراس الأمن، وأخرجت من جيبي شيئاً على شكل الهدية، وقلت خذ هذه هبة مضاعفة قدمها لسيدك واستعجله كي يقابلني اليوم فأنا وقتى ضيق وعلى أن الحق بالطائرة. نظر رضوان في الساعة وهو يدس الهبة في جيبي وقال لم يبق على الطائرة إلا دقائق ويمكنك الإسراع وسأرسل إليك استدعاء بالبريد إذا تركت لي عنوانك. ورمقته بنظرة متشككة، لكنني عدت وتذكرت أنه سيدنا رضوان ولا يمكن أن يكذب وإذا وعد فلا بد أن يفي بوعده. وتركت له عنواني وصرت أجري إلى المطار وفي أعمق إدراك أنه لن يرسل إلى شيئاً. وتجاوزت مرحلة اليأس وأبطأت السير ولم يعد يهمني أن تفوتنى الطائرة. وجلست مرهقاً وما أن وضعت رأسي على الأرض حتى نمت ولم أسمع صوت الطائرة حين هبطت ثم أقلعت بدوني. وصحوت وأنا أعرف أن لا شيء سيأتيني ولن يبعث إلى رضوان بالرسالة وأنا أيضاً لم أتوقعها. وإذا رأيته قادماً نحوي ومعه الرسالة فلن أصدق أنها لي أنا. وإذا كانت لي فلا بد أن هناك خطأ في حسابات الله. وإن رأيته قادماً وفي يده الرسالة فلن أمد يدي لأخذها. وسأقول له استمر في طريقك فأنت تبحث عن رجل آخر غيري. ولا يمكن أن تكون الرسالة لي فأنا لا أستحقها. وابتسمت في راحة هائلة زاهدة في كل شيء حتى لقاء الله. وقلت يا رب أريد حقي فقط دون زيادة أو نقصان وقد امتلكت الشجاعة لأعلن على الملأ تطبيق

شريعتك ونفذت أحكامك كلها وحدود الزنا والسرقة وإلقاء الخمور في النهر، ولم يملك أحد شجاعتي من يتقربون إليك وعيونهم تبريش وأصواتهم تهمس. فلا أحد منهم يقف إلى جوارك بمثل ما وقفت ولا يطبق شريعتك بمثل ما طبقت.

أمسكت وجهي بيدي وعيناي تدمعان. ولم أسمع الصوت من خلفي يأمرني بصوت عال: انهض وارفع ذراعيك إلى أعلى. ولم ألتقط ورائي مدركاً أن لا أحد يخاطبني بهذه اللهجة الآمرة إلا من هو أعلى مني. ونهضت رافعاً ذراعي غير مستدير متظراً الطعنة في ظهري. لكن الصوت أمرني بأن استدير. ولم أصدق أن أحداً حين يرى عدوه من ظهره يعطيه الفرصة للاستدارة. فالاغتيال من الظهر أسهل من الاغتيال من الوجه. ولا يعني الأمر بالاستدارة إلا الاستهانة بالرجل. والاستهانة بالرجل العادي أشد من الإهانة، فما بال الإمام! ولم أستدر. ولم أعطه وجهي. فأنا أريد أن أموت إماماً مغتالاً وليس إماماً مهزوماً. وبقيت في مكاني واقفاً رافعاً عيني وذراعي إلى فوق. ثم سقطت منكفاً على وجهي وفوق شفتي ابتسامة المقاتل حتى آخر رقم. والزاهد في شهوات الدنيا حتى الموت. سمعت حفيظ الشجر في أذني ونقيق الضفادع كاللحن الرائق. ونسمة الليل رطبة منعشة محملة برائحة البحر. وأنا ثابت في مكان لا أجري ولا ألهث، فالوقت ليس ضيقاً ولن يفوتنـي شيء هام أو غير هام. ولا أشعر بألم ولا يأس ولا أفكر في حزب الله أو حزب الشيطان. ولا أرى أحداً إلا نفسي حين كنت طفلاً وأمي ترضعني واللبن دافئ ناعم يسيل من زاوية فمي. وفجأة تصيبني الشرقة وتصدر عنـي الشهقة، أفتح فمي وأغلقه وأرفـس بيدي وقدمي في الهواء ووجهـي أزرق غـتنق. وأكاد أموت في تلك اللحظة. فلا يكون في الدنيا إمام ولا خليفة الله في الأرض. لو لا أن أمي تضربني بكفـها المشقة الكـبيرة فوق ظهـري وتطرـد اللـبن من قـناة الهـواء أو تـطرـد الهـواء من قـناة اللـبن. ويعود

الدم إلى وجهي ويعود إلى الوعي فأرى وجه أمي أمامي وتعود ذاكرتي فجأة وأدرك أنني لم أرها منذ عشرين عاماً. أنهض فوق قدمي أسد الجرح بيدي أمنع نزيف الدم وأسير في الطريق القديم أعرفه لا أخطئه. أدق بابها الخشبي الداكن وأسمع الصرير كالساقية العتيقة. ومن وراء الباب أسمع صوت بطن قدمها تزحف فوق الأرض. وصوتها في أذني أعرفه لا أخطئه: مين؟ وأقول: أنا. ومن وراء الخشب أسمع قلبها يدق وأنفاسها تلهث ويدها الكبيرة ترتعد وهي تفتح الباب ودموعها كالسحابة البيضاء فوق عيون تبريش بغير رموش وظهرها محني. كانت رموشها طويلة حين رأيتها في آخر لقاء وظهرها مرفوع. وقالت تحوطني بذراعيها ودموعها تبلل البذلة الرسمية من الصوف الغالي: عشرون سنة يابني لا أراك؟ وقلت: مشاغل يا أمي ومشاكل بغير حل لا يقدر عليها إلا سبحانه. قالت: وجهك مخطوط يابني كأنك لم تأكل منذ عشرين عاماً؟ وسارت إلى المطبخ بخطواتها السريعة القديمة وظهرها القديم المرفوع وجسمها خفيف لا تكاد قدماها تلامسان الأرض. وعادت تنظر إلى عيون تلمع بالفرح، أهداها طولية، وفوق يديها تحمل الصينية عليها الفطير وعسل النحل وحليب الصباح. أقبلت نحوي تسير وأنا جالس فوق الكتبة القديمة بجوار النافذة حيث كنت أجلس وأنا طفل. أرقب النجوم وأرى وجه الله بين السحب كوجه أبي. وسمعت ضربات قلبها وهي تقترب مني وعيناها تلمعان بالفرح ويداها تهتزان والصينية فوق يديها تهتز. ولم يبق بينها وبيني إلا ثلات خطوات، ورأسها من الفرحة يدور والدنيا تدور به. وخطت الخطوة الثانية ولم تبق إلا الخطوة الأخيرة. ومدت قدمها إلى الأمام لكن قدمها لم تمتد. رأيت جسمها يسقط وهي واقفة أمامي لا تبعد عنني إلا امتداد الذراع. ومددت ذراعي لأمسكها لكن يدي لم تمتد. والمسافة بيننا تمتد. وكلما أمد ذراعي لأحوطها تزداد بيننا المسافة. وتصبح هي أبعد مما كنت. وأنا أبعد مما كنت.

لقاء الزوجة الأخيرة والابنة غير الشرعية

لم أكن أتعجل رحيله داخل الصندوق. فهو رغم الموت يضيف إلى حياتي نوعاً من «الحوار» وكان لا «يحاورني» في حياته ويكتب عن «الحوار» المقال وراء المقال. صامت طول الوقت أو يتكلم طول الوقت ولا شيء بينهما. لا يسمع إلا نفسه ولا يرى إلا صورته داخل البرواز فوق مقبرة من الرخام. ويمارس الكتابة بحكم العادة. يمسك القلم بيده اليمنى. ورأسه يمسكه بيده اليسرى كأنما يحمي عقله. وتتنزع عنه الكتابة بألم ودون ألم كالمرض الشهري. ويجلس في الصيف يرشف الخمر مع حبات الفول. وفي الشتاء يتمطى تحت الشمس. ويتشاءب المرة وراء المرة يطرد الهواء الفاسد من رأسه ويسترد وعيه الغائب. في الدور العلوي في أكبر بناية يجلس إلى مكتبه ينظر إلى الأوراق والصور. يرى صورته إلى جوار الإمام في اجتماعات القمة. و المجالس البرلمان والشورى. و حفلات الأعياد والأفراح و اختيار ملكات الجمال وعارضات الأزياء والشهيدات المثاليات. وتوزيع الجوائز في عيد الأدب والفن على أعضاء حزب الله وحزب الشيطان. وهو واقف في الصف الأول تطل عليه من شرفة الحرير عيون الزوجات المحصّنات وأرامل الشهداء والأمهات المثاليات ونساء البر والإحسان تتوضّهن زوجة الإمام. تقدّم يدها الصغيرة الناعمة تلمع في أصابعها فصوص الماس كالإشعاع. تقدم إليه جائزة الأدب الرفيع وحسن

السير والسلوك . وترتفع الأكف السميكة البضة بالتصفيق . والأجسام المربعة داخل ملابس الحداد متتصبة فوق الكعب الرفيعة . وقلوبهن تخفق داخل الصدور يهتفن في نفس واحد « الله . الوطن . الإمام » .

ولا يكف جرس التليفون عن الرنين فوق مكتبه . يرفع السماعة ويعطيني ظهره . وفي الأسلام يهمس الساعة وراء الساعة . وبعد أن ينتهي يقول لي : لا يجوز للزوجة الشرعية أن تفاجئ زوجها في مكتبه كرئيس الأمن . وأضحكه وأقهقه بصوت عال وأقول : ليست مفاجأة ولكن لا يجوز للمرأة إلا تمر على زوجها الشرعي في طريقها إلى موعد الحب . ويرفع رأسه إلى ويستدير بكل جسمه في المقعد نحوه . عيناه تلمعان بالشبق . يرغبني أكثر كلما رغبت غيره وينظر إلى بكل وجهه وأنا أنظر إلى الناحية الأخرى . وفي الليل يحاول امتلاكي دون جدوى . ويمسك القلم ليكتب فلا يكتب شيئاً . وفي الصباح يرى المقال نفسه منشوراً للمرة المائة أو الألف ، ووجهه داخل البرواز قدّيماً أقدم من وجه آدم عليه السلام . ويغزوه الفشل كالعرق من جميع مسام الجسم . وأراه يغالب الهزيمة كذبابة سقطت في صحن العسل . يمسح وجهه بالمنديل ويبتسم فجأة . كأنما غلبه الحزن بفترة . ويقول : أنا مريض بالكتابة ، والكتابة كالحب تقتل . وأقول : الكتابة لا تقتل ، ولا يقتل إلا غياب الوعي . والحب لا يقتل ولا يقتل إلا غياب الحب . ويرمقني بعينين مليئتين بالغيرة . يود لو عاد إليه الوعي لتعود إليه الكتابة . يود لو عرف الحب كما أعرف فأحييه الحب بعد الموت . وتظل الابتسامة فوق وجهه ثابتة . وأدرك أنه أخفى الحزن في قلبه حتى الموت . وكنت أسمعه يضحك ويقهقه وأظن أنه غير قادر على الحزن . أتركه في الغرفة يكتب وهو لا يكتب . وفي الصباح أرى المقال يملأ الصفحة وصورته داخل البرواز ، وأظن ، أنه وجهه الجديد فإذا به الوجه القديم .

رفعت رأسي إلى فوق ورأيت وجهها الشاحب النحيل وعينيها السوداوين تلمعان في الليل كالنجمين. قلت: من أنت؟ قالت: أنا ابنته. قلت: أنا زوجته الشرعية ولم تكن له ابنة. قال: هرب من أمي وأنكرني وأنا طفلاً. قلت: أنت ابنته غير الشرعية. قالت: نعم. وارتدى عينياً إلى الوراء عن عينيها. وفي ارتجاد العين عن العين ارتج الجسد. وفي ارتجاجة الجسد ارتج العقل. وعاد إلى الوعي. وأدركت أنه ميت داخل الصندوق. وأنها شابة عذراء مثلي. تقف على ساقين اثنتين وليس من ذوات الأربع. ولها ذراعان ويدان وفي كل يد أصابع خمس. ويدها ممدودة نحوه بلا خوف وصدرها مكشوف. ومددت يدي نحوها وفي قلبي رعدة. والتقت أياديها فوق جسده الممدود في الصندوق. أمسكت يدي في يدها بقوه وأمسكت يدها في يدي صغيرة الكف كالطفلة بحجم كفي. وملمسها دافئ بحرارة جسمي. وامتدت الأذرع الأربع بعد امتداد الأيدي وتعانقت. ومن بعدها تعانق الجسم مع الجسم. وقلت: أين كنت؟ ومتى ولدت؟ وهل أنت على قيد الحياة؟ وظلت صامتة لا ترد تنظر إلى عينين تتسعان لحزن العالم، وسارت نحو النافذة بخطى بطيئة. أطلت على الكون تفرد ذراعيها كأنما تنشد الله أو الأم أو الأب. وتعلقت عيناهما بالصورة داخل البرواز المحفورة على الصندوق ثم ارتفعت إلى السماء وأقواس النصر وقباب الكنائس ومنارات الجوامع، ثم هبطت إلى الأرض والشوارع والبيوت والدكاكين والناس يشربون العصير والأطفال بملابس العيد يطيرون البالونات. وترتفع البالونات في السماء تحت الشمس مع صيحات الأطفال ومع هواء النهر وهواء البحر. يسري صوت الأطفال في جسدها يرجّه كالضحك. وتفرد ذراعيها تختضن الصوت وتحتضن معه الشمس كأنها الأم.



كنت واقفة أشهدها وهي تطل من النافذة. وسمعت أنفاسها تلهث كالنشيخ المكتوم. أو الضحك المتقطع كالشهقات. ولهاها لا يهدأ كمن كانت تجري دون توقف. وقلبها يدق بصوت مسموع في أذني. ويدها فوق قلبها تحت الثدي الأيسر فوق الجرح الغائر في اللحم. ووجهها شاحب بغير دم. وعيتها جافتان بغير دموع والثني أسود لامع كعين السماء في الليل. سمعتها تقول بصوت هامس كحفي الشجر: لم أكن أبكي حين تصيبني الضربة من الخلف. أستدير وأتلفت حولي باحثة من أين جاءت الطعنة. وأنهض واقفة ويدي فوق الجرح أوقف نزيف الدم وأسير رافعة ظهري ووجهي نحو الشمس. أجتاز الشوارع والبيوت والنواخذ المغلقة والأبواب المغلقة. وأتوقف عند الباب الوحيد المفتوح. يعلوه الاسم: «بيت السعادة». وأقول إنه الباب إلى الله. لم أكن رأيت أمي منذ ولدتنى. قالوا إن الله أخذها. وقلت إذا وجدت الله وجدت أمي. في النوم أمشي وذراعاي ممدودتان أمامي في الظلمة باحثة عن أمي. ولم أكن رأيت الله وجهها لوجه إلا في الحلم. وفي بيت الأطفال كانوا ينادونني «بنت الله» ومن فوق السور العالى أرى قبة الكنيسة ومنارة الجامع. وقال حارس المنارة إن الله ليس له بنت ولا ولد. وقال حارس القبة إن الله هو الأب والابن والروح القدس. ولم يسمع أحد عن بنت الله. ولم أكن رأيت أبي منذ ولدت. تصورت أنه الله لكنني سمعت أنه كاتب كبير في بلاد الإمام. وله مال وبنون. وسمعة طيبة. وليس له أعداء في حزب الله أو حزب الشيطان. ويحبه الجميع أصدقاء وأعداء. ويعيش مع زوجته الأخيرة حياة الزهد كالمسيح. لا يقربها إلا ليلة الخميس. وصباح الجمعة يخرج إلى الصلاة وراء الإمام بغير وضوء. وبعد الصلاة وهو راكع يهز رأسه ناحية اليمين يقدم فروض الطاعة والولاء لحزب الله. ثم يهز رأسه ناحية اليسار يلقي التحية على أعضاء حزب الشيطان. ويستغفر الله ثلات مرات قبل السجود وبعد السجود. ثم

ينهض خفيف الجسم كالمولود الجديد طاهراً من كل الذنوب. يغادر غرفة العبادة وراء الإمام. يسير الهويني مطرق الرأس بخطوات بطيئة يتمتم بآيات الله يردد أسماءه الحسنى على حبات المسبحة. يجتاز السرداب الرفيع كالصراط المستقيم بين غرفة العبادة وغرفة الخمر في الدور الأرضي بالقصر. يسبقه الإمام بخطوة يدخل أمامه. وهو من خلفه يدخل. يشربان نخب الصدقة القديمة. ويسترجعان ذكريات الصبا في بيت السعادة.

الحب المحرم

حديقة خضراء من حول غرفة الخمر في القصر. وسور عال من الحديد. وكلب من نوع «الوولف» المستورد. له في الليل نباح مخيف. لا يقرب السور أحد إلا قطاع الطرق أو أرواح الجان والعفاريت. يختفون في النهار داخل القبور أو في بيوت كالقبور. وفي الليل يخرجون. وفي الضوء الأحمر الناعم يجلس الإمام في يده الكأس. وإلى جواره صديق العمر. بينهما فوق الأريكة مسافة امتداد الذراع. والذراع من تحته وسادة من ريش النعام ومن تحت الوسادة كتاب الله بخطوط الذهب ومسدس كاتم الصوت من أجود الأنواع. وحين ينبع الكلب بصوت عال تمتد يد الإمام وحدها تحت الوسادة تتحسس المقبض. ويرتعج قلب الكاتب الكبير تحت ضلوعه. أنامله الناعمة لا تعرف إلا ملمس القلم. يخاف الظلمة منذ الطفولة وليس له أعداء. وأصدقاؤه كثيرون في حزب الله وحزب الشيطان. يغدق عليهم مما أعطاهم الله. ويغذي الصداقة بالمال. والناس تناديه بالكاتب الكريم. وفي البيت تناديه زوجاته بالرجل البخيل. يدخل ليلة العيد بلا هدية، يداه فارغتان. وفي الصباح ينسى مصروف البيت. ويعود آخر الليل فاقد الوعي خاوي الجيب. تفوح أنفاسه برائحة الخمر وعرق النساء. وتنطبق الشفتان في وجوه الزوجات الشرعيات. لا تفتح الواحدة منهن فمهما. وإذا فتحته فهي طالق. ينطقها ثلاث مرات وهو

راقد، وفمه نصف مفتوح وعيته مغلقتان. تحمل الزوجة صرة ملابسها وتخرج إلى الشارع. وتأتي الزوجة الثانية تخاف الطلاق كالموت. يعرف الناس عن زوجها كل شيء وهي آخر من يعلم. تسمع الإشاعات لا تصدقها. تطرد من حياتها الوهم. أو تكتمه في الأعماق. تخشى أن تبوح به لنفسها فينقلب الوهم حقيقة. وتطبق فمها لا تفتحه. فإذا فتحته وقع عليها اليمين كالقضاء والقدر. وتأتي الزوجة الثالثة تخاف القضاء والقدر كأنه الله. وتصمت إلى الأبد ولا تسمح لنفسها حتى بالوهم. لكن الطلاق يأتيها كالمصير بلا سبب. وتأتي الزوجة الرابعة شابة صغيرة مرفوعة الرأس. مشوقة القد كالغزال.. تتربيص للقضاء والقدر كالأسد. وعينها مفتوحة سوداء كالشيطان. قرأت الكتب وتاريخ الملوك والترااث وألف ليلة وليلة وجميع الكتب المقدسة. عرفت الله والشيطان وعرفت الجنة والنار. ولم تكن تخاف الموت. ولا تتبعجل الذهاب إلى الجنة. فلم يكن في الجنة مكان لغير العذراوات.

تقديم إليها بعقد الزواج يرتدي وجه العذراء. يعرض صورته الكبيرة داخل البرواز يخفي البخل بالكرم. ويخفي الخوف بالحب. ويعشق كأبيه في السر. ولا يذكر وجه أمه إلا عند الموت. وكان لأمه حب آخر خلاف الطبع والزوج. تخفي الورق تحت السرير وتكتب القصص. جمعت القصة وراء القصة في كتاب واحد. أول كتاب لها وأخر كتاب. ومنذ الزواج لم تعرف أناملها ملمس القلم. وفي الليل بعد أن ينام أبوه تفتح الدرج أسفل المكتب. تتحسس يدها الغلاف واسمها محفور فوق الورق كالكتنر. تتلفت حولها متوجسة أن تراها عين. وتلتقي عيناها بعين ابنها الطفل. مفتوحة في الليل كعين الله ترقبها. وتخفي الكتاب في الدرج تقلل عليه القفل. وفي السرير ترقد على الطرف بجوار الحائط. وفي الطرف الآخر يرقد زوجها وبينهما الطفل. يغمض عينيه متظاهراً بالنوم.

وفي الصباح يضربه أبوه ليحفظ دروس الأمس. وينفي الطفل نادمه حبه لكتابه القصص. يدرس العلم كأنما العلم نقىض الأدب. ويحفظ كتاب الله عن ظهر قلب. وكلما حفظه أحبه أبوه وراحت عنه شبهة الفن، وفي الليل يحس أذن أبيه فوق صدره يتسمع خفقانات القلب. يلتقط أي خفقة أو أي قطرة تسربت مع لبن الأم إلى الدم.

العشيقه

جاءت من بيت السعادة تلقي عليه نظرة أخيرة وهو راقد يبتسم في الصندوق. ينظر إليها وفي عينيه بريق العشق. قالت نزوة يائسة أخيرة لا تفعل شيئاً، وعشقة للنساء كمحاولاته اليائسة مع الفشل. دخلت واقفة تحوط رأسها بشعرها الكثيف تربطه بمنديل أبيض يتدلل منه الترتر. وحولت بصرها عنه إلى زوجاته الشرعيات واقفات يرتدين ملابس الحداد. وجوههن متشابهة وأياديهن الصغيرة البضة معقودة فوق قلوبهن. وأنفاسهن مكتومة وسيقانهن فوق الكعب الرفيعة ملتقصة. ولا تكاد تفرق الواحدة عن الأخرى إلا بدبوس فوق الصدر أو شارة على الكتف. واللامح ممسوحة والرأس صغير والردف ثقيل. والروح غائبة. واقفات صامتات ينظرن إليها بعيون جاحظة كعيون الضفادع أو السمك تحت الماء. وانفرجت الشفاه المطبقة في آن واحد وسألن: من أنت؟ قالت وهي ترفع رأسها فوق عنقها بحركة كالشمسخة لم تعرفها الزوجات الشرعيات: أنا العشيقه جواهر. وارتخت أجسادهن فوق الكعب الرفيعة. ومع ارتجاجة الجسد عادت الروح ومعها الوعي. ورأين في عينيها السوداويين بريقاً موجعاً كالصدق. اخترق عيونهن. ونفذ رغم الوجع إلى بؤرة في القلب. وهتفن بصوت واحد: عشيقه من فيهم؟ قالت: كلهم، ابتداء من الإمام إلى حارس القبة والمنارة. واتسعت عيونهم بذعر. أخفينها تحت

الأيدي . والتَّفَتَ الأذْرُعُ حَوْلَ الصَّدُورِ تَحْكُمْ إغْلَاقَ الْقَوْقَعَةِ . وَهَتَّفَنَ بِصَوْتِ كَالْلَهَاثِ : أَنْتَ الشَّيْطَانُ وَعَقَابُكَ الْمَوْتُ . وَأَطْلَقَنَ سِيقَانَهُنَّ السَّمِينَةَ لِلرِّيحِ . وَالكَعُوبُ الْمَدِيَّةُ تَطْرُقُ كَالصَّوَارِيخَ . وَلَمْ يَبْقَ فِي الغَرْفَةِ إِلَّا اثْنَانِ . الْزَّوْجَةُ الْأُخْرَى وَالابْنَةُ غَيْرُ الشَّرِيعَةِ . وَاقْفَاتُانِ وَالْأَيْدِي مُتَشَابِكَةٍ . وَامْتَدَتْ إِلَيْهِمَا يَدُ الْعَشِيقَةِ وَالتَّقَتِ الْثَّلَاثُ فِي عَنَاقٍ . تَشَابَكَتِ الْأَذْرُعُ السَّتُّ فَوْقَ الْجَسَدِ الرَّاقِدِ فِي الصَّنْدُوقِ . وَالْابْتِسَامَةُ فَوْقَ شَفَتِيهِ رَاحِتُ . وَمَلَامِعُ الْوَجْهِ تَلَاشَتْ . وَلَمْ يَعُدْ يُشَبِّهَ وَجْهَ الْإِمَامِ وَلَا الْكَاتِبَ الْكَبِيرَ وَلَا رَئِيسَ الْأَمْنِ وَلَا الْمَعَارِضُ الشَّرِيعِيُّ وَلَا أَيِّ رَجُلٍ مِّنْ حَزْبِ اللَّهِ أَوِ الشَّيْطَانِ . أَصْبَحَ بِلَا وَجْهٍ أَوْ هُوَ وَجْهُهُمْ جَمِيعًا فِي وَجْهٍ وَاحِدٍ مَسْوَحٌ الْمَعَالِمِ . لَا تَمْيِيزُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ عَنِ الْآخَرِ إِلَّا بِشَارَةٍ فَوْقَ الصَّدْرِ أَوْ نَجْمَةٍ عَلَى الْكَتْفِ أَوْ شَيْءًا عَلَى الرَّأْسِ .

وَفِي مَرَايَا الْكَوْنِ ظَهَرَتْ صُورَةُ لِثَلَاثِ نِسَاءٍ مَرْفُوعَاتِ الرَّأْسِ . مَفْتُوحَاتِ الْعَيْنَينِ . وَالْعَيْنَانِ وَاسِعَةٌ سُودَاءُ كَعِينِ اللَّيلِ . وَالْقُلُوبُ تَخْفَقُ بِالْحُبِّ . وَالْأَذْرُعُ مُتَشَابِكَةٌ وَالْأَيْدِي مُتَمَاسِكَةٌ . وَالْثَّلَاثَةُ وَاقِفَاتٌ مُتَعَانِقَاتٌ ثَابِتَاتٌ فِي الْكَوْنِ بِلَا حَرْكَةٍ .

جواهر

في الصندوق وهو راقد كان ينظر إليها وعيناه تلمعان بالعشق.
ويدها تدور على رأسه من القمة إلى السفح ثم تزحف بطيئة فوق العنق.
تدور حول رقبته كالخيط الحرير تشدّه حتى يشّهق ويختنق. لكنه يتضحك
فتشدّه أكثر حتى يكُف عن الضحك وتشوبه زرقة. فترتحي أناملها الناعمة
من حول عنقه. وتزحف بين الشعر الأشيب الناحل فوق صدره لتمسّك
الخرزة الزرقاء باقية لم يخلعها منذ علقتها أمّه في الطفولة. تلتقطها بطرف
الأنمليتين كفكّي الملقطات وتقول: أملك خافت عليك من العين وأنا أخاف
عليك من الأذن. ثم تشدّه من أذنه وتضحك. وتلقي بشعرها الكثيف
خلف ظهرها. وأذنه تشرب مرّهفة لصوتها يهمس بالعشق. وعينها ثابتة
في عينيه حتى ينتصب الشعر في جذور الرأس. ويختفي منابت شعره
الأبيض بلون أسود. صبغة من الحنة السوداء ترسلها إليه أمّه في كيس
من الدمور. يذيب المسحوق في الماء ويصبح خطوط الشيب حتى يصبح
شعره بلون الليل. لكن الشعر الأبيض فوق صدره وأسفل بطنه يكشف
حقيقة العمر. يتحسس التجاعيد فوق وجهه وعيناه تتسعان بالدهشة.
كأنما الشيخوخة تسربت إليه خلسة وهو غارق في النوم. وتلتقي عيناه
بعينيها في المرأة، فتحرّك رأسها بعيداً تخشى العدوى. كأنما الشيخوخة
مرض تنتقل بتلامس العيون وفي عينيها يرى نظرة الإشفاق على نفسها.

فهي شابة تعيش وهو عجوز ميت . ويحوطها بذراعيه ينشج بين يديها ، أنا مهزوم يا جواهر . وبيدها تبعده عنها . في أعماقها تدرك أنه يريد أن ينقل عجزه إليها . وبعد كل لقاء يزداد فشله . ومع ذلك يأتي إليها لا يكف . كنوع من الإدمان . كالخمر يستيقظ إليها ولا يعيش أو يموت بغيرها .

لم يعترف لها بالهزيمة أبداً . كان قد أدمتها إلى حد الإحساس بالنصر . كالسم يتلعر المدمن بلذة متزايدة . وحين يلتقي بها يرمي جسدها من تحت الثوب . في عينيها بريق كنصل السيف . تنظر إلى جسده الميت فتدب فيه الحياة تحت بريق العين . وينتفض بين ذراعيها كالفرخ المدبوح وهي لا تنتفض . ويقول : أنت امرأة غير النساء . وتقول : كيف ؟ يقول : أنت امرأة لا تشعر بجسمها مع إحساسها الدائم بعقلها . ويتضاءب كأنما يداهمه النوم فجأة . ثم يفتح عينين مليئتين بالغيرة . يغار من عقلها أكثر من أي شيء آخر . يحاول اغتصابها . كأنما بالاغتصاب يستعيد التوازن . لكن عجزه يتتأكد المرة بعد المرة . ويخرج من عندها يجري إلى زوجته الشرعية . يدفن رأسه بين نهديها وينشج كطفل في حضن الأم . تحوطه بذراعيها وهي غارقة في النوم . لا تفتح جفنيها . وتحس أنفاسه الساخنة فوق عنقها فتدرك أنه محظوظ بالحب . ليس لها . وإنما لامرأة أخرى يعجز عن امتلاكها . وتكتشف وهي نائمة أن المرأة غير المملوكة لأحد هي معبودة الرجال . فهي الوحيدة القادرة على إيلامهم . وتقول لنفسها في النوم :

لا يحب الرجال إلا تلك التي تؤلمهم .

الأُم والابنة

في المرأة رأت نفسها واقفة مشوقة القد. من حول رأسها هالة بلون الليل. والعين واسعة كقرص الشمس. وجسمها ملفوف يتوجه بألوان الطيف. يمتد فوق الهضبة الخضراء بين البحر والنهر. تفرد ذراعيها وتحتضن الكون. وتحرك ساقيها فوق الأرض. قدماها تدبان باللحن. وأنغام الصبح كأنغام الليل تحركها. عقلها لا يعرف السكون. وجسدها لا يكف عن الرقص. والهواء من حولها يصبح اللحن تعشقه. والنغم في صدرها كالهواء يملأها. وتطير في الجو كالروح بلا جسد. تدور بالرقصة دون ردف ولا بطن. وترفع رأسها في السماء تمسك السماء ولا أحد يمسكها. وفي أذنها تسمع الدقة وراء الدقة ثلاث دقات تعرفها لا تخطئها. والوجه الصغير يطل من بين السحاب تعرفه لا تخطئه. ومن ملايين الوجوه في الكون تميزه. واليد الصغيرة تطل من الكم. شاحبة بيضاء بلا دم. وأصابع الكف مفتوحة تشبه أصابعها في ابتهال صامت أبلغ من الصوت. والعين واسعة سوداء كعين السماء في الليل. وفي صدرها تخبيها وتجري لا تكف عن الجري. وأقدامهم من خلفها تدب بأحذية من الحديد. في كل كعب حدوة كحوافر الخيل. وفي يد كل منهم حجر أو آلة قتل. وهي في صدرها مخبأة تحت القلب. قلبها الصغير يدق الدقة وراء الدقة مع النبض. وأصابعها الخمس تنقبض

وتنسك إصبع الأم. والأم تجري تحتمي بالظلمة قبل طلوع الشمس. تأخرت الشمس في الطلوع لتحمي الأم في الليل. والقمر أيضاً أغمض عينه والنجوم راحت في النوم. وانطفأ في الكون كل ضوء. أغلق الحارس آخر أبواب القصر. وتنتمي بآية الكرسي. ونام الإمام وحزب الله وحزب الشيطان، والهوا نام وأوراق الشجر نامت. وهي واقفة تتلفت حولها تخشى أن تلمحها عين. لم تر في الظلمة أي عين. فانتزعتها من صدرها وساوت الأرض ببطن الكف. وأبعدت الطوب والخضري وفرشت الأرض بتراب ناعم كصدر الأم. وأرقدتها. وجهها صغير شاحب يطل من فتحة الثوب. أسنانها تصطتك بالبرد. خلعت الشال الصوفي الأسود وحوطتها. لامست يدها الصغيرة إصبع الأم فأمسكته بأصابعها الخمس لا تتركه. وتركت الأم إصبعها في يدها بطول الشهيق العميق في صدر الأم. ونسيت أنهم وراءها والمسافة بينها وبينهم ضاقت. لكنها تركت إصبعها في يدها لا تسحبه حتى آخر نفس. وظللت واقفة تطل عليها من فوق. وفي ظهرها يضربون الطعنة وراء الطعنة. والأم لا تحول وجهها عن وجه البنت. لا تستدير إليهم ومهما ضربوا لا تسقط. فهي ساقطة من قبل. وسقوط السقوط صعود. ومهما تصايحو لا تعطيهم إلا ظهرها. فهي تعرف أنهم يهربون من وجهها إذا استدارت إليهم. يخافون أن تسقط عينها على وجوههم. فهي تعرفهم واحداً واحداً ابتداءً من الإمام إلى الحارس والخفير. وجميعهم كانوا يأتون إليها في الظلمة بوجوه تنكرية. وفي فراشها في بيت السعادة يخلعون الوجه المطاط وشعر الشارب واللحية والعباءة والسروال. وتراهم واحداً واحداً بغير لباس ولا شارة على الكتف أو نجمة فوق الصدر. وجميعهم شكل واحد ورائحة واحدة وحركة واحدة من طرف واحد. كالهجوم بغتة والتراجع بغتة ورفع علم الهزيمة ينتصب بغتة كعرف الديك. صواريخ النصر تفرقع. والهتاف يدوبي. وهي واقفة تحت الضوء. نصف عارية ترتدي بدلة

الرقص. والصاجات بين أصابعها تطرق. وجسمها ساخن تحت الشمس. يختضن عقلها البارد كنصل السيف. وعيتها مفتوحة حراء كعين السماء في القيظ. ترمقهم واحداً واحداً وهم وقوف يغضون البصر في الأرض. ولكل واحد منهم وجهان اثنان. وجه حلو التقاطيع تنهمر الدموع من المآقي. والوجه الثاني داكن اللون جاحظ العين مدبر الأنف كالسيف.

وصوتها وهي تغني كان هو الطرف. وجسدها المشوّق كالغزال كان هو العشق. إنها لا تبالي الطعنة تأتي من الأمام أو الخلف. فهي ترقص ولا تبالي الموت. وهي ليست في حزب الله أو الشيطان. وليس بالمرأة أو الرجل. وليس بالإنس أو الجن. ولكنها كل ذلك وإن سقط منها شيء يبقى الكل.

المحاكمة

قبل أن يقتلعوا رأسها من الجسد رأوا جذورها ممتدة في بطن الأرض. وبلغ بهم التعب كالخوف. وأخفوا الخوف في التعب. وجلسوا تحت الظل يحمون رؤوسهم من الشمس. يمسحون وجوههم بالمنديل ومن تحتها تطل الملامح ممسوحة بلا أثر. ولا شيء يميز الوجه عن الوجه ولا تكاد تعرف الواحد من الآخر إلا بشارة على الرأس أو الكتف. وتعرفت على كتف رئيس الأمن وهو واقف أمامها يمسح وجهه بالمنديل ويقول:

ألك أقوال أخرى قبل تنفيذ الأمر؟ قالت: أي أمر؟ قال أمر الله والوطن والإمام. وظلت صامتة لا ترد. وقال: ألا تؤمنين بالله والوطن والإمام؟ قالت: الثلاثة كلهم في آن واحد؟ قال نعم الإيمان بالكل أو لا شيء. وظلت صامتة لا ترد. ودون في الدفتر بالقلم. الصمت يعني أنها تفكّر وكوئها تفكّر يعني غياب الإيمان. ومسح وجهه بالمنديل وقال: ألك أقوال أخرى؟ قالت: أريد أن أقول إنني بريئة بلا ذنب ولي أم واحدة هي الشمس. وآباء كثيرون بلا عدد. لا أعرف منهم لا الإسم ولا الوجه. ولا أقرأ الحروف فوق الورق. وأعيش في بيت السعادة وليس في قلبي إلا الحزن. النهار عندكم هو الليل عندي. والسعادة عندكم هي حزني. واللذة عندكم هي عندي الألم. والنصر عندكم هو هزيمتي. وجنتكم هي

جحيمي. وشرفكم هو عاري. وعاري هو شرفكم. وعقلی هو جنونكم.
وجنوني هو عقلکم. وإذا مات جسدي فلن يموت قلبي. وأخر ما يموت
فيّ هو العقل. فهو يعيش على أقل شيء. وكل شيء يموت في قبل
العقل. ولا أحد فيکم نال عقلي. لا أحد. ومهما نلتكم جسدي ظل عقلي
بعيد المنال. كعين الشمس في النهار. كعين السماء في الليل.

ورأتهم واقفين أمامها في طابور طويل يضربون كفًا بكف ويتعجبون
غاية العجب. وقالوا: ليست ساحرة ولا مجونة وإنما عاقلة وكلامها عين
العقل. وأصبح عقلها أخطر من جنونها. فحكموا عليها بالموت بطريقة
أسرع من الرجم. وعدم إعطائهما أي فرصة أخرى للكلام. وعدم نشر
المحاكمة في الصحف. وإغلاق الملف ودفنه في بطن الأرض إلى الأبد.

«تمت»

مَنْ يُسْقِطُ الْإِمَامَ؟ مَنْ يُسْقِطُ التَّسْلُطَ وَالْعُسْفَ وَالْأَسْبَدَادَ وَالظُّلْمَ
الْأَسْوَدَ وَالْقَهْرَ وَالْقَتْلَ السَّادِيِّ...؟ ثُمَّ مَنْ يَكُونُ الْإِمَامَ؟ هُلْ هُوَ
الرَّجُلُ، الْذَّكْرُ، الْأَبُ، الزَّوْجُ، الْزَّعِيمُ، الْحَاكِمُ؟

كَانَ وَاقِفًا مُشْوِقَ الظَّهَرِ رَأْسَهُ فِي السَّمَاءِ تَحْتَ الشَّمْسِ، فَوْقَ
جَبَّينِهِ عَلَامَةُ الإِيمَانِ، وَفَوْقَ صَدْرِهِ نَجْمَةُ النَّصْرِ وَفِي أَذْنِهِ يَدُوِّي
الْهَتَافُ «اللَّهُ مَعَكُ». يَهْتَزُ رَأْسَهُ مِنْ شَدَّةِ الدُّوَيْ وَيَرْتَخِي وَجْهُهُ
وَيَشْحُنِي لِيُسْقِطَ بَيْنَ قَدَمَيْهِ (...). رَأْسَهُ لَمْ يَعُدْ عَالِيًّا تَحْتَ الشَّمْسِ،
وَوَجْهُهُ يَتَجَهُ نَاحِيَةَ الْأَرْضِ وَذَرَاتُ التَّرَابِ تَدْخُلُ أَنْفَهُ، وَرَئِيسُ الْأَمْنِ
يَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي صَمْتٍ كَأَنَّمَا لَمْ يَحْدُثْ شَيْئًا.

الْوَطَنُ وَالْقِيمُ وَالْأَخْلَاقُ تَتْحَفَّزُ مُجَمَّعَةً لِتُسْقِطَ مِنْ كَانَ صَنْعَ
وَيَصْنَعُ سُقُوطَهَا دَائِمًا.

ISBN 1 85516 595 3